لورنا دون

الروايات المشهورة

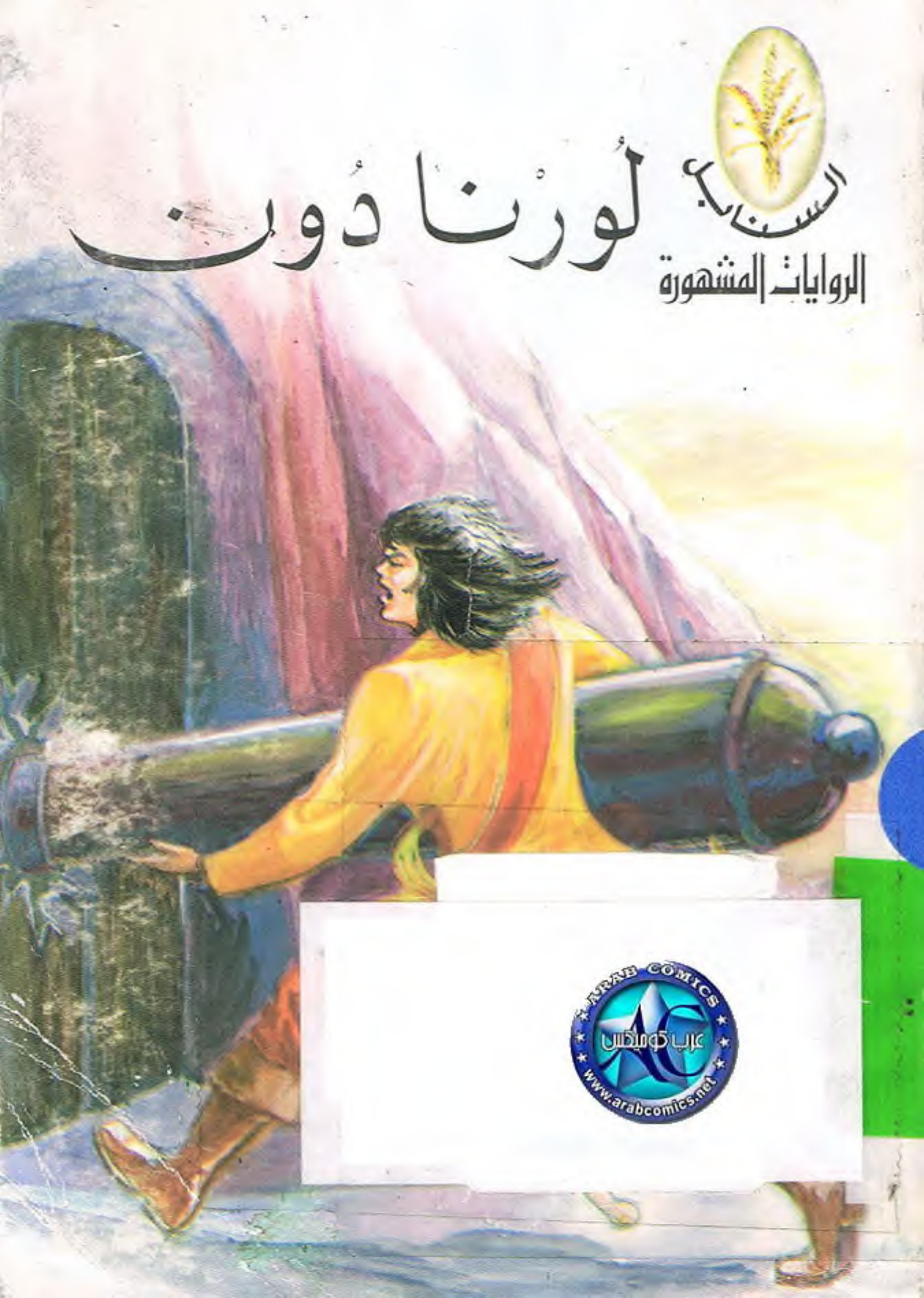

ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net

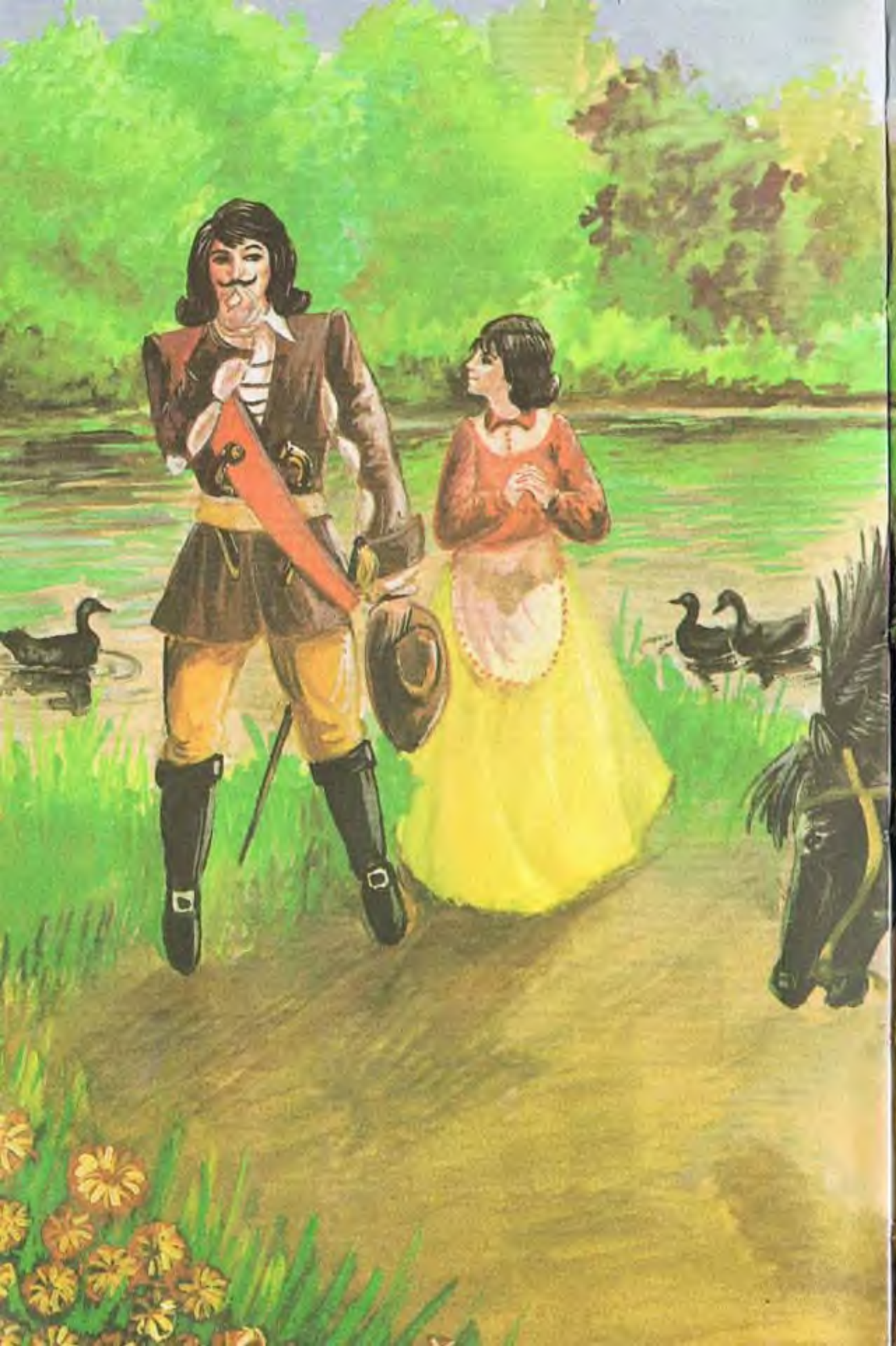

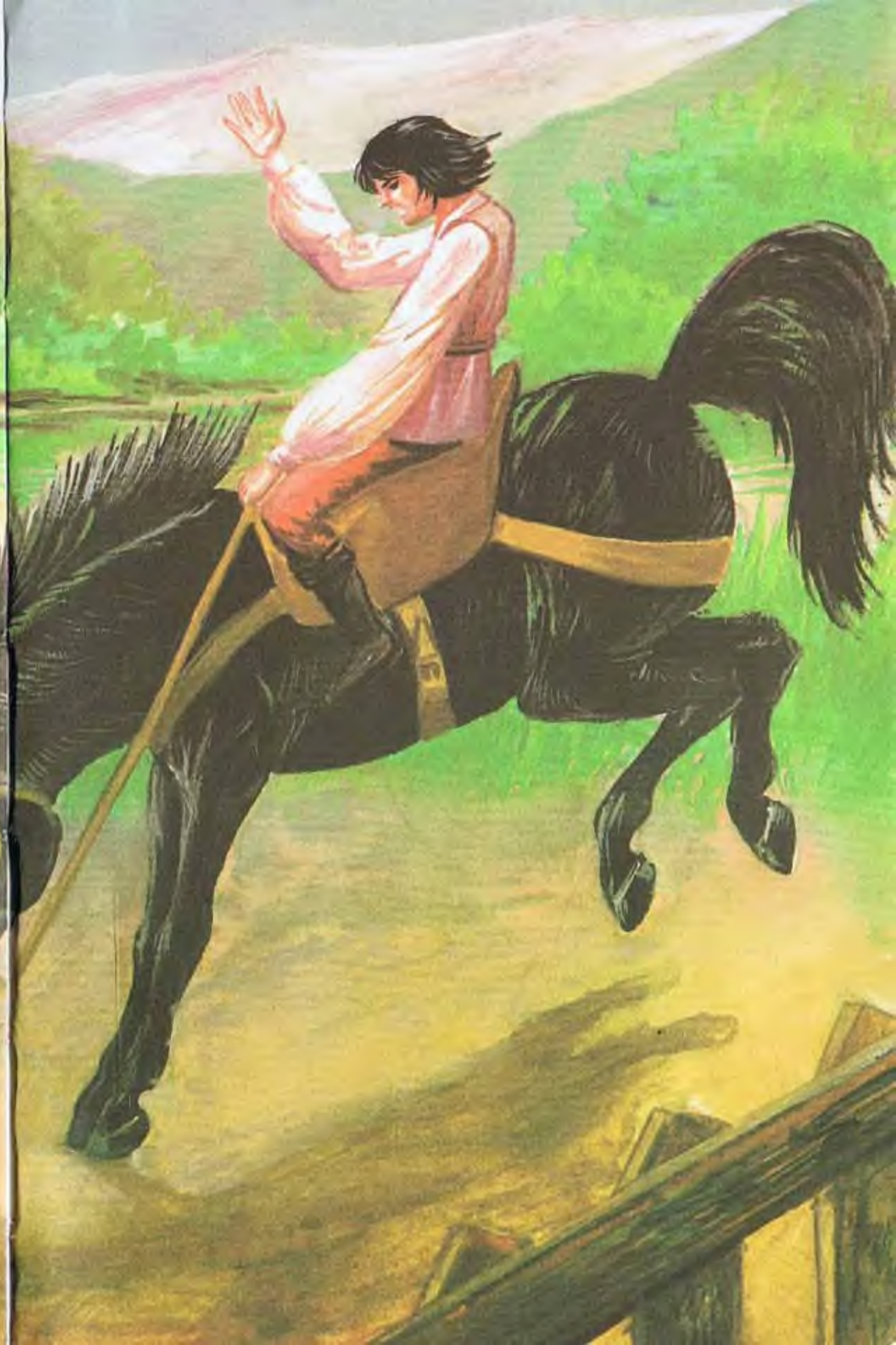

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة

جميع الحقوق محفوظة : لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه أو تسجيله بأية وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٢٩١ / ٨٨
الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧-١٤٤٥-٤٩-٥

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

لورنا دون

السنابل

الروايات المشهورة

تأليف : ر. د. بلاكمور

إعداد : شوقي رياض السنورسي

رسوم : محمّد نبيل عبد العزيز

مكتبة لبنان

بيروت

الفَصْلُ ٱلأَوَّلُ

ٱلْقِطاعي عَنِ ٱلمَدْرَسةِ

اسْمِي جُون رِد ، وَأَعيشُ في قَرْيةِ « أُوير » بإقْليمِ « سُومِرْسِت » بإنْجلْتِرا . وَسَوْفَ أَحْكي لَكُمْ عَنْ أَحْداثٍ مُثيرةٍ وَقَعَتْ في هٰذِهِ ٱلبُقْعةِ مِنَ ٱلعالَمِ خِلالَ حَياتِي .

كانَ والِدي يَعْمَلُ في مَزْرَعةٍ آلَتْ إلَيْهِ عَنْ جَدِّي . وَقَدْ تَوارَثْنا هٰذِهِ ٱلمَزْرَعةَ أَبًا عَنْ جَدٍّ مُنْذُ مِئاتِ ٱلسِّنِينَ . وَلَمَّا حانَ وَقْتُ انْتِظامِي في ٱلدِّراسةِ ، ٱلتَحَقْتُ بِمَدْرَسةِ « بْلَنْدِل » في مَدينةِ « تِيفْرْتُون » . وَلَوْ أَمْعَنْتَ ٱلنَّظَرَ في إحْدَى ٱللَّوْحاتِ ٱلمُعَلَّقةِ بِهٰذِهِ ٱلمَدْرَسةِ ، لَقَرَأْتَ ٱسْمِي مَحْفُورًا عَلَيْها . وَلَمْ أَتَلَقَّ سِوَى قَليلٍ مِنَ ٱلعِلْمِ بِها ، لِأَنَّني تَرَكْتُها مُبَكِّرًا .

وَهٰذِهِ قِصَّةُ تَرْكي لِلْمَدْرَسةِ في ٱلتَّاسِعِ وَٱلعِشْرينَ مِنْ شَهْرِ نُوفَمْبِر عامَ ١٦٧٣ م .

كُنْتُ عائِدًا مِنَ ٱلمَدْرَسةِ مَعَ زُمَلائِي في ٱلسَّاعةِ ٱلخامِسةِ حِينَ كانَ صَفٌّ طَويلٌ مِنَ ٱلجيادِ ٱلمُحَمَّلةِ بِٱلبَضائِعِ يَسيرُ عَلى ٱلطَّريقِ في حِراسةِ بَعْضِ ٱلجُنودِ ؛ إذْ كانَ يُظَنُّ أَنَّ مِسْتَر فاجَّس قَريبٌ مِنَ ٱلمَكانِ ، وَأَنَّهُ قَدْ يَسْطو عَلى هٰذِهِ ٱلبَضائِعِ . وَكانَ مِسْتَر فاجَّس ٱبْنَ عَمِّي ، وَكانَ مَعْروفًا لِلْجَميعِ بِأَنَّهُ مِنْ قُطَّاعِ ٱلطُّرُقِ .

أَسْرَعْنا جَميعًا نَحْوَ بَوَّابةِ ٱلمَدْرَسةِ لِنَرَى ٱلجيادَ وَٱلجُنودَ وَهُمْ يَمُرُّونَ .

وَبَيْنَما كُنَّا نَتدافَعُ لِلْخُروجِ ، لَكَمَني أَحَدُ ٱلتَّلاميذِ ، وَاسْمُهُ رُوبِن سْنِلّ ، في بَطْني . وَتَمَلَّكَني ٱلغَضَبُ ، وَرَدَدْتُ عَلَيْهِ بِلَكْمةٍ في وَجْهِهِ . فانْدَفَعَ إِلَيَّ وَضَرَبَني بِعُنْفٍ ضَرْبةً أَوْقَعَتْني أَرْضًا .

تَصايَحَ ٱلغِلْمانُ : « انْهَضْ ياجُون ! لَقَدْ ضَرَبَكَ وَرَدَدْتَ إِلَيْهِ ٱلضَّرْبةَ ، وَلَنْ يَحْسِمَ ٱلأَمْرَ بَيْنَكُما سِوَى مَعْرَكةٍ . »

اقْتَرَبَ مِنَ ٱلمَكانِ رَجُلٌ يَجُرُّ جَوادَيْنِ . وَسَأَلَ ٱلرَّجُلُ : « هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ جُون رِد ؟ » كانَ ٱلسَّائِلُ هُوَ جُون فراي ٱلخادِمَ في مَنْزِلِنا .

تَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ قائِلًا : « لِماذا حَضَرْتَ في هٰذا ٱلوَقْتِ ياجُون ؟ إِنَّ ٱلدِّراسةَ مُسْتَمِرَّةٌ حَتَّى ٱلشَّهْرِ ٱلقادِمِ ، وَأَمامي شَهْرٌ آخَرُ مِنَ ٱلدِّراسةِ . »

أَدارَ جُون فراي وَجْهَهُ بَعيدًا عَنِّي ، ثُمَّ قالَ :

« أَعْرِفُ ذٰلِكَ ، غَيْرَ أَنَّ أُمَّكَ في ٱلمَنْزِلِ تَطْهو ٱلطَّعامَ ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَدْ أُعِدَّ لَكَ ٱلآنَ . »

سَأَلْتُهُ : « كَيْفَ حالُ والِدي ؟ لَقَدِ اعْتادَ دائِمًا أَنْ يَأْتِيَ في بَدْءِ ٱلإِجازةِ لِاصْطِحابي إِلى ٱلبَيْتِ . »

أَجابَ جُون فراي ، وَقَدْ خَفَضَ بَصَرَهُ : « إِنَّهُ ٱلآنَ عَلى ٱلجانِبِ ٱلاخَرِ مِنَ ٱلتَّلِّ . » وَأَدْرَكْتُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ لا يُخْبِرُني بِٱلحَقيقةِ .

سَأَلْتُهُ : « هَلْ يُمْكِنُني أَنْ أُنْهِيَ ٱلمَعْرَكةَ مَعَ هٰذا ٱلغُلامِ أَوَّلًا ياجُون ، أَمْ يَتَحَتَّمُ أَنْ نَرْحَلَ ٱلآنَ ؟ »

أَجابَ : « كَلَّا ! بَلْ خُضِ ٱلمَعْرَكةَ . سَوْفَ تَخوضُ مَعارِكَ كَثيرةً في

حَياتِكَ ، وَلابَأْسَ مِنْ أَنْ تَبْدَأَ مِنَ ٱلآنَ . »

كانَ رُوبِن سْنِلّ أَضْخَمَ مِنِّي جِسْمًا . وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُرَكِّزَ ذِهْني في ٱلمَعْرَكةِ بادِئَ ٱلأَمْرِ ، إِذْ كُنْتُ أُفَكِّرُ فِيما قالَهُ جُون فراي عَنْ والِدي . وَلٰكِنْ ما إِنْ لَكَمَني رُوبِن في وَجْهي حَتَّى جُنَّ جُنوني ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ ٱلضَّرْبةَ في ٱلحالِ . وَدارَ ٱلنِّزالُ بَيْنَنا نَحْوَ ثَلاثِ دَقائِقَ ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ صاحَ ٱلغُلامُ ٱلَّذي يَحْكُمُ بَيْنَنا قائِلًا : « انْتَهَتِ ٱلجَوْلةُ ! »

تَوَقَّفْنا وَاسْتَرَحْنا قَليلًا . وَبَدَأْتُ ٱلجَوْلةَ ٱلثّانِيةَ أَكْثَرَ حَذَرًا ، إِذْ أَخَذْتُ أُناوِرُ خَصْمي إِلى أَنْ تَمَلَّكَهُ ٱلإِجْهادُ . وَكانَ جُون فراي خارِجَ حَلْقةِ ٱلأَوْلادِ ، يَقْتَرِبُ بَيْنَ ٱلحينِ وَٱلحينِ لِيَسْأَلَ عَنْ أَنْباءِ ٱلمَعْرَكةِ .

« سَلِمَتْ يَمينُكَ ياجُون ! » هَتَفَ بَعْضُ ٱلمُتَفَرِّجينَ ، عَلى حِينَ صاحَ آخَرونَ :

« أَجْهِزْ عَلَيْهِ ! اِطْرَحْهُ أَرْضًا ! »

مَرَّةً أُخْرى سَمِعْتُ ٱلحَكَمَ يَصيحُ : « انْتَهَتِ ٱلجَوْلةُ ! »

وَفي ٱلجَوْلةِ ٱلأَخيرةِ عَقَدْتُ ٱلعَزْمَ عَلى أَنْ أَنْتَصِرَ عَلى رُوبِن سْنِلّ أَوْ لا أَرى مَنْزِلي أَبَدًا مَرَّةً ثانِيةً . وَقَهْقَهَ ٱلخَصْمُ ساخِرًا في وَجْهي ، فَتَمَلَّكَني غَضَبٌ شَديدٌ . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ سَدَّدَ إِلَيَّ ضَرْبةً بِيَدِهِ ٱليُسْرى غَيْرَ أَنَّني تَفادَيْتُها بِحَرَكةٍ مِنْ رَأْسي . وَسُرْعانَ ما ناوَلْتُهُ بِيَميني لَكْمةً قَوِيَّةً بَيْنَ عَيْنَيْهِ . كانَتْ تِلْكَ هِيَ ٱلضَّرْبةَ ٱلقاضِيةَ ٱلَّتي أَنْهَتِ ٱلمَعْرَكةَ . وَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ عاوَنْتُ في حَمْلِ رُوبِن سْنِلّ إِلى فِراشِهِ .

الفَصْلُ آلثَّانِي

مُعاداةُ آلِ دُون

كانَ آلطَّريقُ مِنْ تِيقِرْتُون إلى أُوير طَويلًا وَوَعْرًا . وَكانَ مِنَ آلعَسيرِ عَلى آلمُسافِرِ أَنْ يَطْمَئِنَّ إلى مَواضِعِ خُطاهُ في بَعْضِ أَجْزاءِ هٰذا آلطَّريقِ .

غادَرْنا تِيقِرْتُون مُبَكِّرَيْنِ في آلصَّباحِ ، وَعَبَرْنا نَهْرَيْنِ ، ثُمَّ وَصَلْنا دَلْقِرْتُون في مُنْتَصَفِ آلنَّهارِ . وَكانَ جُون فراي يُخْفي عَنِّي سَبَبَ حُضُورِهِ آلمُفاجِئَ ؛ كانَ مِنَ آلواضِحِ أَنَّهُ يَكْذِبُ عَلَيَّ .

تَناوَلْنا طَعامَ آلغَداءِ في دَلْقِرْتُون ، ثُمَّ تَوَجَّهْتُ إلى فِناءِ آلدَّارِ آلَّتي نَزَلْنا بِها لِأَغْسِلَ يَدَيَّ . حِينَئِذٍ خَرَجَتْ مِنَ آلبَيْتِ امْرَأَةٌ شابَّةٌ ، كانَ يَبْدُو أَنَّها إيْطالِيَّةٌ . وَتَطَلَّعَتْ إِلَيَّ قائِلَةً : « تَعالَ إِلَيَّ يا صَغيريَ آلعَزيزَ . أَنا « بِينِيتَّا » خادِمَةُ آلسَّيِّدَةِ آلمُبَجَّلَةِ . ياإلٰهي ! ما هٰذِهِ **آلآثارُ آلزَّرْقاءُ** آلَّتي تَظْهَرُ عَلى وَجْهِكَ ؟ هَلْ ضَرَبَكَ أَحَدٌ ؟ »

أَجَبْتُها في اقْتِضابٍ : « **يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ** آلآنَ . إنَّ جُون فراي يَنْتَظِرُني . »

سأَلَتِ آلمَرْأَةُ : « كَمْ **تَبْعُدُ بَلْدَةُ** « واتْشِت » عَنْ هُنا ؟ »

« **إنَّها تَبْعُدُ** مَسافَةً طَويلَةً ، **وَآلطَّريقُ** إِلَيْها وَعْرٌ مِثْلُ آلطَّريقِ إلى أُوير . »

« أُوير ! سَوْفَ أَتَذَكَّرُ هٰذا آلمَكانَ جَيِّدًا . هَلْ تَعيشُ هُناكَ ؟ قَدْ أَذْهَبُ

إلى هٰذِهِ آلبَلْدَةِ ذاتَ يَوْمٍ لِأَراكَ . وَآلآنَ أَرْجوكَ أَنْ تَمْلَأَ لِسَيِّدَتي هٰذا آلكُوبَ ماءً . »

مَلَأْتُ آلكُوبَ ، وَعادَتِ آلمَرْأَةُ أَدْراجَها إلى آلدَّارِ .

اِمْتَطَيْنا – أَنا وَجُون فراي – جَوادَيْنا . وَما إنْ سِرْنا بَعْضَ آلوَقْتِ حَتَّى مَرَرْنا بِمَرْكَبَةٍ ضَخْمَةٍ تَصْعَدُ آلجَبَلَ تَجُرُّها سِتَّةُ جيادٍ . وَلَمَحْتُ في داخِلِ آلمَرْكَبَةِ آلخادِمَةَ آلَّتي قابَلْتُها حِينَ كُنْتُ أَغْسِلُ وَجْهي ، وَكانَتْ في رِفْقَةِ سَيِّدَةٍ تَبْدو عَلَيْها عَلاماتُ آلهَيْبَةِ وَآلوَقارِ . وَكانَتْ تَجْلِسُ إلى جِوارِ آلسَّيِّدَةِ فَتاةٌ صَغيرةٌ ذاتُ شَعْرٍ فاحِمٍ رائِعِ آلجَمالِ . وَرَفَعْتُ قُبَّعَتي تَحِيَّةً لَهُنَّ ، فَلَوَّحَتْ لي آلفَتاةُ . وَلٰكِنْ سَرْعانَ ما اخْتَفَتِ آلمَرْكَبَةُ عَنِ آلأَنْظارِ عِنْدَما عَرَّجْنا إلى طَريقٍ جانِبِيٍّ وَانْطَلَقْنا في طَرِيقِنا . وَكانَ آلضَّبابُ آلكَثيفُ يُظَلِّلُ تِلْكَ آلمِنْطَقَةَ حَتَّى أَصْبَحَ مِنَ آلعَسيرِ أَنْ نَرَى أَبْعَدَ مِنْ خُطْوَةٍ أَوْ خُطْوَتَيْنِ .

كانَ جُون فراي عَلى وَشْكِ أَنْ يَغْفُوَ عِنْدَما تَنَبَّهَ قائِلًا : « أَيْنَ نَحْنُ آلآنَ ؟ »

فُوجِئْتُ بِشَيْءٍ مُتَدَلٍّ مِنَ آلشَّجَرَةِ آلَّتي أَمامي ، وَغَشِيَني رُعْبٌ شَديدٌ . كانَ هٰذا آلشَّيْءُ جُثَّةَ رَجُلٍ !

سارَعْتُ أَسْأَلُ : « مَنْ هٰذا آلشَّخْصُ آلمُعَلَّقُ عَلى آلشَّجَرَةِ ياجُون ؟ هَلْ شَنَقُوا واحِدًا مِنْ عائِلَةِ دُون ؟ »

« شَنَقوا واحِدًا مِنْ عائِلَةِ دُون !! لا تَكُنْ أَحْمَقَ ، فَإِنَّ آلمَلِكَ نَفْسَهُ لا يَجْرُؤُ عَلى شَنْقِ أَحَدِ أَفْرادِ هٰذِهِ آلعائِلَةِ ! هٰذا لِصٌّ يُدْعَى رِد جِيم . »

اسْتَأْنَفْنا آلسَّيْرَ . وَأَرَدْتُ أَنْ أَعْرِف آلمَزيدَ عَنْ رِد جِيم ، فَسأَلْتُ : « مَنْ هُوَ رِد جِيم ؟ »

أَجابَ جُون : « صَهِ ! نَحْنُ آلآنَ عَلى مَقْرَبةٍ مِنَ آلطَّرِيقِ آلخاصِّ بِآلِ دُون . يَجِبُ أَنْ نَسيرَ في هُدوءٍ تامٍّ ، فَقَدْ يَخْرُجونَ آللَّيْلَةَ في إِحْدَى جَوْلاتِهِمْ بِآلمِنْطَقة . آلُ دُون قَتَلةٌ ، لُصوصٌ ! وَهُمْ عائِلةٌ شَهيرةٌ في إِقْليمِ « باغْورْذي » ، يَكْرَهُها آلجَميعُ وَيَخْشَوْنَها بِشِدَّةٍ . »

« وَلٰكِنْ هَلْ تَظُنُّ ياجُون أَنَّهُمْ يَسْتَطيعونَ رُؤْيَتَنا في مِثْلِ هٰذا آلضَّبابِ آلكَثيف ؟ »

« إِنَّهُمْ يَسْتَطيعونَ آلرُّؤْيَةَ مَهْما كانَ آلضَّبابُ كَثيفًا . لَمْ يُوْجَدْ بَعْدُ ضَبابٌ يَحْجُبُ آلرُّؤْيَةَ عَنْ أَبْصارِ آلِ دُون . وَآلآنَ يابُنَيّ ، هَيَّا نَنْطَلِقُ في هُدوءٍ ، إِذا كُنْتَ تَبْغي آلبَقاءَ عَلى قَيْدِ آلحَياةِ حَتَّى تَرَى أُمَّكَ . »

وَصَلْنا واديًا عَميقًا . وَقَبْلَ أَنْ نَهْبِطَ إِلَيْهِ سَمِعْتُ وَقْعَ حَوافِرِ جيادٍ تَعْدُو فَوْقَ آلأَرْضِ آلرَّخْوةِ ، وَصَوْتَ أَنْفاسٍ لاهِثةٍ لِفُرْسانٍ مُتْعَبينَ .

ناداني جُون في صَوْتٍ خَفيضٍ قائِلًا : « انْزِلْ مِنْ فَوْقِ حِصانِكَ ، وَأَطْلِقْهُ . »

اسْتَلْقَيْنا عَلى آلأَرْضِ خَلْفَ شُجَيْرةٍ . وَكانَ آلطَّريقُ يَمْتَدُّ طَويلًا مِنْ تَحْتِنا . وَفي آلحالِ مَرَّ أَوَّلُ آلرَّاكِبينَ ، ثُمَّ انْقَشَعَ آلضَّبابُ فَجْأَةً فَظَهَرَ لَنا ضَوْءٌ أَحْمَرُ مِنْ بَعيدٍ .

هَمَسَ جُون في أُذُني قائِلًا : « إنَّها ٱلنَّارُ يُشْعِلونَها فَوْقَ جَبَلِ « دَنْكِري » لِيُبَيِّنوا لِرِجالِ آلِ دُون ٱلطَّريقَ إلى مَنازِلِهِمْ . »

كُنْتُ مُسْتَلْقيًا عَلى ارْتِفاعِ عِشْرينَ قَدَمًا فَقَطْ فَوْقَ ٱلرَّاكِبينَ .

كانُوا رِجالًا ضِخامًا مُسَلَّحينَ بِٱلبَنادِقِ ، كَما كانُوا يَحْمِلونَ ٱلأَشْياءَ ٱلَّتي نَهَبوها فَوْقَ جيادِهِمْ : فَناجينَ مَصْنوعةً مِنَ ٱلفِضَّةِ وَٱلذَّهَبِ ، وَحَقائِبَ ، وَصَناديقَ ، وَأَغْنامًا مَذْبوحةً . وَكانَ أَحَدُهُمْ يَحْمِلُ فَتاةً صَغيرةً عَلى جَوادِهِ . كانَتْ تَرْتَدي مَلابِسَ جَميلةً جَذَّابةً ، وَكانَتْ هِيَ ٱلفَتاةَ نَفْسَها ٱلَّتي سَبَقَ أَنْ رَأَيْتُها جالِسةً في ٱلمَرْكَبةِ .

لَمْ يَكُنْ هٰؤُلاءِ ٱلرِّجالُ ٱلأَشِدَّاءُ يَعْلَمونَ حينَئِذٍ أَنَّ هٰذِهِ ٱلفَتاةَ ٱلصَّغيرةَ سَوْفَ تَكونُ في ٱلسَّنَواتِ ٱلقادِمةِ سَبَبَ هَلاكِهِمْ وَإِحْراقِ بُيوتِهِمْ .

لَمْ يَأْتِ وَالِدي لِلِقائي . وَعِنْدَ بابِ ٱلدَّارِ تَناهَى صَوْتُ نَحيبٍ إلى أُذُنَيَّ . وَكانَتْ أُمِّي هِيَ ٱلَّتي تَبْكي .

لَقَدْ ماتَ والِدي ... قَتَلَهُ آلُ دُون ٱلمُجْرِمونَ !

الفَصْلُ ٱلثَّالِثُ

مَقْتَلُ والِدي

قُتِلَ والِدي بِيَدِ رَجُلٍ مِنْ آلِ دُون .

كانَ عائِدًا عَلى ظَهْرِ جَوادِهِ إلى ٱلمَنْزِلِ مِنْ بَلْدَةِ « بُورْلُوك » ٱلصَّغيرةِ بِصُحْبةِ خَمْسةِ مُزارِعينَ . وَفَجْأَةً ظَهَرَ أَمامَهُمْ رَجُلٌ مِنْ آلِ دُون ، وَأَمَرَهُمْ بِتَسْليمِ كُلِّ ما مَعَهُمْ مِنْ نُقودٍ . وَشَرَعَ ٱلمُزارِعُونَ ٱلخَمْسةُ في تَنْفيذِ ٱلأَمْرِ ، وَلٰكِنَّ والِدي تَقَدَّمَ بِجَوادِهِ مُباشَرةً نَحْوَ ذٰلِكَ ٱلشَّخْصِ وَحاوَلَ أَنْ يَضْرِبَهُ بِعَصاهُ . وَعِنْدَئِذٍ هاجَمَ والِدي اثْنا عَشَرَ رَجُلًا كانُوا مُخْتَبِئينَ ، فَطَرَحَ ثَلاثةً مِنْهُمْ أَرْضًا ، غَيْرَ أَنَّ أَحَدَ ٱلباقِينَ واسْمُه كارْڤَر دُون كانَ يَحْمِلُ بُنْدُقيَّةً أَطْلَقَها عَلى والِدي . وَفي ٱلصَّباحِ ٱلتَّالي وُجِدَتْ جُثَّتُهُ مُلْقاةً وَتَحْتَها عَصاهُ ٱلمَكْسُورةُ .

تَرَكَ والِدي ثَلاثةً مِنَ ٱلأَبْناءِ ، أَكْبَرُهُمْ أَنا – جُون رِد – وَكانَتِ ٱلوُسْطى هِيَ أُخْتي آني . أَمَّا ٱلصُّغْرَى فَكانَتْ تُدْعى ليزي .

الفَصْلُ ٱلرَّابِعُ

قُدومُ آلِ دُون إلى باغْوِرْذي

لَعَلَّهُ مِنَ ٱلضَّروريِّ أَنْ أَحْكيَ لَكُمْ طَرَفًا مِنْ تاريخِ آلِ دُون : مَنْ هُمْ ، وَكَيْفَ أَتَوا إلى باغْوِرْذي .

فَفي عامِ ١٦٤٠ ، أَيْ قَبْلَ أَنْ أَتْرُكَ ٱلمَدْرَسَةَ بِثَلاثينَ عامًا ، كانَ هُناكَ رَجُلانِ يَمْتَلِكانِ مَعًا مِساحاتٍ شاسِعةً مِنَ ٱلأَرْضِ في إنْجِلْتِرا . وَكانا يَقْتَسِمانِ رَيعَ هٰذِهِ ٱلأَرْضِ فِيما بَيْنَهُما بِٱلتَّساوي . كانَ أَحَدُ ٱلرَّجُلَيْنِ هُوَ لُورد لورن ، أَمَّا ٱلآخَرُ فَكانَ يُدْعى سِيْر إنْسُور دُون .

وَلَمْ يَلْبَثْ أَنِ اخْتَلَفَ ٱلرَّجُلانِ . فَقَدْ أَرادَ لُورد لورن أَنْ يَسْتَقِلَّ بِنِصْفِ ٱلأَرْضِ لِنَفْسِهِ . أَصْبَحَ لا يَرْضى بِنِصْفِ دَخْلِ ٱلأَرْضِ مُجْتَمِعةً ، وَأَخَذَ يَتَطَلَّعُ إلى ٱلاسْتِحْواذِ عَلى نِصْفِ ٱلأَرْضِ ذاتِها .

وَلَجَأَ كُلٌّ مِنْ لُورد لورن وَسِيْر إنْسُور إلى ٱلمَحْكَمةِ في لَنْدَن . وَاسْتَمَعَ ٱلقاضي إلى وَقائِعِ ٱلنِّزاعِ بَيْنَهُما ، ثُمَّ حَكَمَ بِأَنْ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْهُما ٱلحَقُّ في امْتِلاكِ تِلْكَ ٱلأَراضي .

غَضِبَ سِيْر إنْسُور لِذٰلِكَ غَضَبًا شَديدًا ، وَعَزَمَ عَلى أَنْ يَخْرُجَ عَلى ٱلقانونِ . وَهاجَرَ إلى رُكْنٍ بَعيدٍ مُنْعَزِلٍ مِنْ إنْجِلْتِرا حَيْثُ اكْتَشَفَ واديًا تُحيطُ بِهِ أَسْوارٌ عاليةٌ مِنَ ٱلصُّخورِ . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنِ اسْتَقَرَّ هُناكَ . وَفي بادئِ ٱلأَمْرِ ،

كانَ في صُحْبَةِ سِيْر إنْسُور اثْنا عَشَرَ رَجُلًا ، وَلٰكِنْ بِمُرورِ ٱلوَقْتِ ، أَصْبَحَ عَدَدُهُمْ كَبيرًا ، بَعْدَ أَنِ انْضَمَّ إلَيْهِمْ آخَرونَ . وَعاشَ آلُ دُون في سَلامٍ أَوَّلَ ٱلأَمْرِ ، وَلَمْ يُلْحِقوا أَذًى بِأَيِّ شَخْصٍ . وَتَعاطَفَ ٱلمُزارِعونَ وَسائِرُ ٱلنَّاسِ في ٱلمِنْطَقَةِ مَعَ سِيْر إنْسُور إذْ كانُوا يَعْرِفونَ مَدَى ٱلظُّلْمِ ٱلَّذي وَقَعَ عَلَيْهِ . غَيْرَ أَنَّ آلَ دُون سَرْعانَ ما بَدَأُوا يَسْرِقونَ ٱلمُزارِعينَ ، وَيَقْطَعونَ ٱلطَّريقَ عَلى ٱلمُسافِرينَ ، وَيَقْتُلونَ كُلَّ مَنْ يَتَصَدَّى لَهُمْ . عِنْدَئِذٍ أَخَذَ ٱلنَّاسُ يَمْقُتونَ آلَ دُون وَيَخْشَوْنَهُمْ ؛ وَلٰكِنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يَجْرُؤْ عَلى مُقاتَلَتِهِمْ إذْ كانُوا شَديدي ٱلبَأْسِ . كانَ كُلُّ رِجالِ عائِلَةِ دُون عَمالِقةً أَقْوِياءَ ، وَكانُوا يُدَرَّبونَ مُنْذُ نُعومةِ أَظْفارِهِمْ عَلى إصابَةِ ٱلهَدَفِ في ٱلرِّمايَةِ .

كُنْتُ غُلامًا حِينَما قُتِلَ والِدي . وَلٰكِنَّني كُنْتُ واثِقًا مِنْ أَنَّ لي دَوْرًا قادِمًا في هٰذِهِ ٱلحَياةِ . وَأَخَذْتُ بُنْدُقِيَّةَ والِدي وَشَرَعْتُ أَتَدَرَّبُ عَلى إطْلاقِها ، وَعَلى إصابَةِ ٱلهَدَفِ بِها . لَقَدْ صَمَّمْتُ عَلى أَنْ أُعِدَّ نَفْسي لِذٰلِكَ ٱليَوْمِ ٱلمَشْهودِ ٱلَّذي سَوْفَ أَقْتُلُ فيهِ كارْقَر دُون .

لا بُدَّ أَنْ أَقْتُلَ ٱلرَّجُلَ ٱلَّذي قَتَلَ والِدي .

الفَصْلُ ٱلخامِسُ

أَنْقَذَتْني ٱلصَّخْرةُ

هُناكَ بِٱلقُرْبِ مِنْ مَزْرَعَتِنا نَهْرانِ : نَهْرُ باغْورْذي وَنَهْرُ لِنّ ؛ وَعَلى بُعْدِ مِيلَيْنِ جَنوبَ ٱلمَزْرَعةِ ، يَتَلاقَى هٰذانِ ٱلنَّهْرانِ وَيُصْبِحانِ نَهْرًا واحِدًا عَريضًا ، يَتَدَفَّقُ عَبْرَ ٱلتِّلالِ ٱلعالِيةِ ، وَٱلغاباتِ ٱلمُعْتِمةِ مُكَوِّنًا بُحَيْراتٍ صَغيرةً تَكْثُرُ فيها ٱلأَسْماكُ .

في فَصْلِ ٱلصَّيْفِ ، كُنْتُ أَقْصِدُ هٰذِهِ ٱلبُحَيْراتِ كَثيرًا مَعَ أُخْتي آني لِصَيْدِ ٱلسَّمَكِ ، كَما كُنْتُ أَذْهَبُ إِلَيْها بِمُفْرَدي في بَعْضِ ٱلأَحْيانِ . كُنْتُ قَدْ بَلَغْتُ ٱلرّابِعةَ عَشْرةَ مِنْ عُمْري في ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ . وَكانَتْ أُمّي مَريضةً مُنْذُ فَتْرةٍ مِنَ ٱلزَّمَنِ ، وَكُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّها تُحِبُّ ٱلسَّمَكَ .

ذاتَ صَباحٍ بارِدِ ٱلنَّسَماتِ مِنْ أَيّامِ ٱلرَّبيعِ ، خَرَجْتُ حامِلًا سَلَّتي لِأَصْطادَ لِأُمّي سَمَكًا . وَسِرْتُ مَسافةَ مِيلَيْنِ عَلى وَجْهِ ٱلتَّقْريبِ . وَسَيَظَلُّ هٰذا ٱلْيَوْمُ عالِقًا بِذِهْني ما حَييتُ ، إِذْ ما زِلْتُ أَتَذَكَّرُ ٱلأَشْجارَ ٱلَّتي كانَتْ تَتَهَيَّأُ لِٱسْتِقْبالِ ٱلرَّبيعِ ، كَما أَتَذَكَّرُ بُرودةَ ٱلماءِ ٱلَّذي كُنْتُ واقِفًا فيهِ . وَسِرْتُ نَحْوَ مِيلَيْنِ في ٱلماءِ ، وَأَنا أُحاوِلُ أَنْ أَلْتَقِطَ سَمَكةً مِنْ هٰذا ٱلمَوْضِعِ أَوْ ذاكَ . وَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ أَتَيْتُ إِلى مَكانٍ ٱزْدادَ فيهِ ٱتِّساعُ ٱلنَّهْرِ . وَكانَ ٱلماءُ شَديدَ ٱلبُرودةِ فيهِ ، فَرَغِبْتُ في ٱلعَوْدةِ إِلى ٱلبَيْتِ لِأَنَّني لَمْ أُوَفَّقْ في ٱصْطِيادِ شَيْءٍ .

جَلَسْتُ عَلى ضِفَّةِ ٱلنَّهْرِ أَفْرُكُ ساقَيَّ ، ثُمَّ أَخْرَجْتُ بَعْضَ ٱلخُبْزِ وَٱللَّحْمِ

وَبَدَأْتُ أَتَناوَلُهُ . وَما إِنْ أَكَلْتُ حَتَّى شَعَرْتُ بِٱلقُوَّةِ تَدِبُّ في جَسَدي ، فَعَزَمْتُ عَلى أَنْ أَمْضيَ في ٱتِّجاهِ مَنْبَعِ ٱلنَّهْرِ حَتَّى أَصِلَ إِلى وادي آلِ دُون . كانَتِ ٱلمياهُ بارِدةً جِدًّا . وَكانَتْ هُناكَ أَماكِنُ مُعْتِمةٌ مِنَ ٱلنَّهْرِ تَمْتَدُّ تَحْتَ ظِلالِ ٱلأَشْجارِ ٱلكَثيفةِ . وَشَعَرْتُ بِٱلخَوْفِ ٱلشَّديدِ وَأَنا أَعْبُرُ تِلْكَ ٱلأَماكِنَ ؛ فَقَدْ كانَتِ ٱلأَشْجارُ ٱلسّامِقةُ تَنْتَصِبُ حَوْلي وَقَدْ تَساقَطَتْ أَوْراقُها ، عَلى حِينَ ٱرْتَفَعَتْ أَمامي أَغْصانُها ٱلضَّخْمةُ مِثْلَ أَذْرُعٍ تَتَهَيَّأُ لِضَرْبي . غَيْرَ أَنَّني حَصَلْتُ عَلى سَمَكٍ كَثيرٍ خِلالَ تِلْكَ ٱلمَسيرةِ .

لَمْ أَهْتَمَّ بِمُرورِ ٱلوَقْتِ ، وَٱسْتَأْنَفْتُ ٱلخَوْضَ في ٱلمِياهِ . وَكُنْتُ أَصيحُ فَرَحًا كُلَّما أَمْسَكْتُ بِسَمَكةٍ ، فَأَسْمَعُ صَدَى صَوْتي يَرْتَدُّ مِنَ ٱلجِبالِ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ صَوْتٌ آخَرُ يَتَرَدَّدُ في ذٰلِكَ ٱلجَوِّ ٱلهادِئِ ٱلبارِدِ .

أَتَيْتُ إِلى فُسْحةٍ بَيْنَ ٱلأَشْجارِ وَرَأَيْتُ أَمامي كُتْلةً مِنَ ٱلمياهِ عَلى شَكْلِ بِرْكةٍ مُسْتَديرةٍ وَعَميقةٍ . كانَ ٱلماءُ يَدورُ سَريعًا في هٰذِهِ ٱلبِرْكةِ . وَرَفَعْتُ عَيْنَيَّ إِلى ٱلصَّخْرةِ ٱلعالِيةِ ٱلَّتي عَلى ٱلجانِبِ ٱلآخَرِ فَرَأَيْتُ مَسيلَ ماءٍ صافٍ يَنْحَدِرُ عَلى جانِبِ ٱلصَّخْرةِ . وَكانَ مَنْظَرًا بَديعًا .

كانَ بِٱسْتِطاعَتي أَنْ أَسْبَحَ ، وَلٰكِنَّني كُنْتُ مُتْعَبًا وَأَشْعُرُ بِٱلبَرْدِ ، فَلَمْ أَرْغَبْ في ٱلخَوْضِ في ٱلمِياهِ ٱلعَميقةِ ، كَيْ لا يَبْتَلَّ جِسْمي كُلُّهُ بِٱلماءِ (إِذْ كانَتْ ساقايَ فَقَطْ هُما ٱللَّتَيْنِ ٱبْتَلَّتا حَتَّى ذٰلِكَ ٱلحِينِ .)

كانَتِ ٱلصُّخورُ ٱلعالِيةُ تَحْجُبُ ضَوْءَ ٱلنَّهارِ . وَعَلا صَخَبُ ٱلمِياهِ مِنْ

حَوْلي ، فَشَعَرْتُ بِٱلخَوْفِ . وَأَرَدْتُ مَرَّةً أُخْرَى أَنْ أَعودَ أَدْراجي إلى ٱلمَنْزِلِ . غَيْرَ أَنَّني لَمْ أَلْبَثْ أَنْ قُلْتُ لِنَفْسي : « إنَّ ما يَدْفَعُ بِٱلخَوْفِ إلى قَلْبِكَ ياجُون رِد هُوَ مَرْأى هٰذِهِ ٱلأَشْجارِ وَٱلصُّخورِ ، بِٱلإضافةِ إلى هَديرِ ٱلمِياهِ ٱلدَّافِقةِ ... فَهَلْ أَعودُ إلى أُمّي لِأُخْبِرَها بِأَنَّني كُنْتُ خائِفًا مِنْ أَشْياءَ لا تَبْعَثُ عَلى ٱلخَوْفِ ؟ »

سَرْعانَ ما رَبَطْتُ سَلَّةَ ٱلسَّمَكِ إلى عُنُقي ، وَسِرْتُ إلى أَسْفَلِ صَخْرةٍ كانَتْ تَبْرُزُ مِنَ ٱلماءِ . وَٱنْزَلَقَتْ قَدَمي عَلى ٱلنَّباتِ ٱللَّيِّنِ ٱلمُبَلَّلِ ٱلَّذي يَكْسو ٱلصَّخْرَةَ فَوَقَعْتُ في ٱلماءِ . وَسَبَحْتُ بِقُوَّةٍ ، وَلٰكِنَّ ٱلمَوْجَ جَرَفَني بَعيدًا إلى وَسَطِ ٱلنَّهْرِ . وَشَعَرْتُ بِأَنَّني عَلى شَفا ٱلمَوْتِ ، لِأَنَّ ساقَيَّ كانَتا تُؤْلِمانِني جِدًّا . غَيْرَ أَنَّني تَمَكَّنْتُ مِنَ ٱلعَوْدَةِ إلى ٱلصَّخْرَةِ وَشَرَعْتُ في تَسَلُّقِها وَكانَ ٱلماءُ يَتَدافَعُ فَوْقَ رَأْسي ، وَلٰكِنَّني أَخَذْتُ أَصْعَدُها شَيْئًا فَشَيْئًا . وَأَحْسَسْتُ بِٱلهَواءِ ٱلمُنْعِشِ يُداعِبُ وَجْهي ، فَواصَلْتُ ٱلصُّعودَ في شِدَّةٍ وَعَزْمٍ . وَسَقَطْتُ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلإعْياءِ فَوْقَ ٱلعُشْبِ ٱلأَخْضَرِ ٱلَّذي يَكْسو قِمَّةَ ٱلصَّخْرَةِ .

ٱلفَصْلُ ٱلسَّادِسُ

لِقائي لُورْنا دُون

فَتَحْتُ عَيْنَيَّ فَرَأَيْتُ فَتاةً صَغيرةً إلى جانِبي ، وَكانَتْ تَمْسَحُ بِوَرَقَةِ نَباتٍ عَلى وَجْهي . قالَتِ ٱلفَتاةُ : « إنَّني سَعيدةٌ جِدًّا . أَراكَ أَحْسَنَ حالًا الآنَ ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

لَمْ أَكُنْ قَدْ سَمِعْتُ في حَياتي مِنْ قَبْلُ صَوْتًا لَهُ عُذوبةُ صَوْتِها ، وَلا رَأَيْتُ مَخْلوقًا بِرَوْعةِ عَيْنَيْها ٱلسَّوْداوَيْنِ وَشَعْرِها ٱلغَزيرِ . وَبَدَتْ لي كَزَهْرةٍ بَديعةٍ مِنْ أَزْهارِ الرَّبيعِ ٱلجَميلةِ ٱلمُتَفَتِّحةِ – وَلَقَدْ ظَلَلْتُ أَراها دائِمًا عَلى هٰذِهِ الصُّورةِ ٱلباهِرةِ في السَّنَواتِ التّالِيةِ – وَرُبَّما راقَ لَها وَجْهي آنَذاكَ ، فَقَدْ قالَتْ لي فيما بَعْدُ إنَّ وَجْهي قَدْ أَعْجَبَها حينَ رَأَتْني لِأَوَّلِ مَرَّةٍ .

نَهَضْتُ جالِسًا .

سَأَلَتْني : « ما اسْمُكَ ؟ كَيْفَ أَتَيْتَ إلى هٰذا ٱلمَكانِ ؟ وَما هٰذِهِ ٱلأَشْياءُ ٱلَّتي في سَلَّتِكَ ؟ »

أَجَبْتُ : « هٰذِهِ أَسْماكٌ اصْطَدْتُها لِأُمّي ، وَلٰكِنَّني سَأُعْطيكِ بَعْضًا مِنْها إذا أَرَدْتِ . »

صاحَتِ ٱلفَتاةُ : « ما هٰذا ؟ لَقَدْ جُرِحت ساقُكَ ! سَوْفَ أَرْبُطُها لَكَ . »

قُلْتُ : « هٰذا لا يُهِمُّ . سَوْفَ أَرْبُطُها عِنْدَما أَعودُ إلى مَنْزِلي . وَلٰكِنَّني لَمْ

أَرَ فَتاةً في مِثْلِ جَمالِكِ مِنْ قَبْلُ . اِسْمي جُون رِد – فَما آسْمُكِ ؟ »

أَجابَتْني في صَوْتٍ خَفيضٍ : « اِسْمي لُورْنا دُون ، كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّكَ تَعْرِفُهُ . »

دُون .. كانَ هٰذا آلِاسْمُ يَعْني بِالنِّسْبَةِ لي أَشْياءَ كَثيرةً . هٰذِهِ آلفَتاةُ إِذًا واحِدةٌ مِنْ آلِ دُون آلَّذينَ قَتَلوا والِدي ! وَمَعَ ذٰلِكَ فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَكْرَهَها ! لَقَدْ مَسَّ صَوْتُها شِغافَ قَلْبي . كانَ شَعْرُها آلأَسْوَدُ آلبَديعُ يَنْحَدِرُ عَلى كَتِفَيْها ، كَما كانَتْ تَنْبَعِثُ مِنْ عَيْنَيْها أَضْواءٌ وَظِلالٌ مِثْلُ ما يَبْعَثُهُ ضَوْءُ الشَّمْسِ في أَعْماقِ آلغابَةِ . وَبَدَأْتُ أَجْمَعُ أَشْيائي ، وَأَحْدَثْتُ في أَثْناءِ ذٰلِكَ شَيْئًا مِنَ آلجَلَبَةِ حَتَّى تَنْتَبِهَ إِلى أَنَّني أُوشِكُ عَلى آلرَّحيلِ . وَشَرَعْتُ في السَّيْرِ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَطْلُبْ مِنِّي آلبَقاءَ . وَكُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّني لَنْ أَسْتَطيعَ آلنُّزولَ مِنْ فَوْقِ تِلْكَ آلصَّخْرَةِ ، وَأَنَّني قَدْ أَسْقُطُ وَأَلْقى مَصْرَعي إِذا ما حاوَلْتُ ذٰلِكَ . وَبَعْدَ لَحَظاتٍ آلْتَفَتُّ إِلى آلفَتاةِ قائِلًا : « لُورْنا ! »

فالْتَفَتَتْ نَحْوي قائِلةً : « لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّكَ قَدْ رَحَلْت .. لِماذا أَتَيْتَ إِلى هٰذا آلمَكانِ ؟ أَلا تَعْرِفُ ما سَوْفَ يَفْعَلُهُ آل دُون إِذا شاهَدوكَ تَجْلِسُ ها هُنا مَعي ؟ »

« سَوْفَ يَضْرِبونَني ، وَلٰكِنَّهُمْ لَنْ يَجْرُؤُوا عَلى ضَرْبِكِ أَنْتِ . »

« سَوْفَ يَقْتُلونَنا ، وَيَرْمونَ بِجُثَّتَيْنا في آلماءِ . »

سَأَلْتُ : « وَلٰكِنْ لِماذا يَقْتُلونَني ؟ »

« لِأَنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ ٱلطَّرِيقَ ٱلسِّرِّيَّ إلى وادي آلِ دُون . وَٱلآنَ ، أَرْجوكَ أَنْ تَذْهَبَ . أَنْتَ تَروقُ لي كَثيرًا ، وَلَسَوْفَ أُناديكَ مِنَ ٱلآنَ بِاسْمِكَ ٱلأَوَّلِ جُون وَعِنْدَما تُشفى ساقُكَ تَمامًا ، يُمْكِنُكَ أَنْ تَأْتِيَ ثانِيةً لِرُؤْيَتي . »

قُلْتُ لَها : « وَأَنْتِ تَروقينَ لي أَيْضًا يالُورْنا . لَقَدْ أَحْبَبْتُكِ بِقَدْرِ ما أُحِبُّ أُخْتي آني ، وَأَكْثَرَ مِمَّا أُحِبُّ أُخْتي ليزي . إِنَّني لَمْ أَرَ مِثْلَكِ مِنْ قَبْلُ . وَلَسَوْفَ أُحْضِرُ لَكِ مَعي بَعْضَ ٱلتُّفَّاحِ وَكَلْبًا صَغيرًا ، عِنْدَما آتي ثانِيةً إلى هُنا . »

قالَتِ ٱلفَتاةُ في سَذاجةٍ : « آهٍ ، لَنْ يَسْمَحوا لي بِاقْتِناءِ كَلْبٍ . لَيْسَ ثَمَّةَ كَلْبٌ واحِدٌ في هٰذا ٱلوادي كُلِّهِ . »

قُلْتُ وَقَلْبي يَنْبِضُ بِعاطِفةٍ جَيَّاشةٍ : « ضَعي يَدَكِ في يَدي . يالَكِ مِنْ مَخْلوقٍ صَغيرٍ بَريءٍ . »

عِنْدَئِذٍ تَناهَتْ إلى آذانِنا صَيْحةٌ عالِيةٌ . وَسَرْعانَ ما شَحَبَ وَجْهُ ٱلفَتاةِ وَصَرَخَتْ قائِلةً : « آهٍ ، أَنْقِذْني ! »

رَدَدْتُ عَلى ٱلفَوْرِ قائِلًا : « هَيَّا نَهْبِطُ تِلْكَ ٱلصَّخْرةَ ٱلَّتي يَسيلُ فَوْقَها ٱلماءُ . »

قالَتْ : « كَلَّا ! كَلَّا ! سَوْفَ يَرَوْنَنا وَنَحْنُ نَعْبُرُ فَوْقَ ٱلعُشْبِ . هَلْ تَرى تِلْكَ ٱلصَّخْرةَ قُرْبَ ٱلشُّجَيْراتِ هُناكَ ؟ إِنَّها تُؤَدِّي إلى طَريقٍ يَحْمِلُكَ إلى خارِجِ ٱلوادي .. رَبَّاهُ سَوْفَ يَقْتُلونَني إذا ما عَرَفوا أَنَّني أَخْبَرْتُكَ بِهٰذا ٱلسِّرِّ . »

رَأَيْتُ حَوالَى ٱثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا قادِمينَ عَلى أَرْضِ ٱلوادي . فَقَفَزْتُ بِسُرْعةٍ إلى ضِفَّةِ ٱلنَّهْرِ ، جاذِبًا إيَّاها وَرائي .

صاحَ ٱلرِّجالُ قائِلينَ : « أَيَّتُها ٱلمَلِكةُ ! أَيَّتُها ٱلمَلِكةُ ! أَيْنَ هِيَ ٱلمَلِكةُ ؟ »

قالَتْ لي لُورْنا : « إِنَّهُمْ يُنادونَني دائِمًا بِٱلمَلِكةِ . سَوْفَ أُصْبِحُ مَلِكةً عَلى ٱلوادي عِنْدَما أَكْبَرُ . »

هَمَسْتُ لَها : « سَوْفَ أَخْتَبِئُ أَنا في ٱلماءِ ، أَمَّا أَنْتِ فَتَمَدَّدي عَلى ٱلعُشْبِ ٱلَّذي هُناكَ كَما لَوْ كُنْتِ نائِمةً . »

جَرَتْ لُورْنا نَحْوَ صَخْرةٍ كَبيرةٍ ، عَلى بُعْدِ ثَلاثينَ مِتْرًا ، وَرَقَدَتْ تَحْتَها . وَاخْتَفَيْتُ أَنا داخِلَ ٱلماءِ ٱلَّذي كانَتْ تَنْمو فيهِ ٱلحَشائِشُ الطَّويلةُ . وَلَمْ يَبْدُ مِنْ جَسَدي وَسْطَ تِلْكَ ٱلحَشائِشِ سِوى أَنْفي .

وَسَرْعانَ ما اقْتَرَبَ أَحَدُ هٰؤُلاءِ ٱلرِّجالِ ٱلأَشِدَّاءِ مِنَ ٱلفَتاةِ ، وَتَوَقَّفَ مُتَطَلِّعًا إِلَيْها بُرْهةً وَجيزةً ، ثُمَّ حَمَلَها بَيْنَ ذِراعَيْهِ وَهُوَ يَصيحُ : « هاهِيَ ذي مَلِكَتُنا . ها هِيَ ذي آبْنةُ زَعيمِنا . »

وَضَعَها ٱلرَّجُلُ فَوْقَ كَتِفِهِ ، ثُمَّ سارَ بِها في رَكْبِ ٱلرِّجالِ ٱلآخَرينَ . عِنْدَئِذٍ خَرَجْتُ مِنَ ٱلماءِ ، وَتَوَجَّهْتُ مُباشَرةً إلى ٱلفَجْوةِ ٱلَّتي أَشارَتْ لُورْنا إِلَيْها . وَما إِنْ دَخَلْتُها حَتَّى وَجَدْتُ نَفْسي أَسيرُ في نَفَقٍ مُظْلِمٍ . وَفي نِهايةِ هٰذا ٱلنَّفَقِ وَصَلْتُ إلى حافَةِ ٱلبِرْكةِ .

الفَصْلُ آلسَّابِعُ

تُوم وَحِصانُهُ وِني

أَخَذْتُ أُفَكِّرُ كَثيرًا في لُورْنا بَعْدَ زِيارَتي لِوادي آلِ دُون ، وَصِرْتُ أَحْلُمُ بِها كَثيرًا ، كَما كُنْتُ أَتَقَدَّمُ في آلتَّدْريبِ عَلى آلرِّمايةِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ .

كانَ لَدَيَّ في نَفْسِ آلوَقْتِ أَعْمالٌ كَثيرةٌ : فَقَدْ كانَ عَلَيَّ أَنْ أَحْصُدَ آلقَمْحَ ، وَأَجْمَعَ آلتُّفّاحَ ، وَأَجْلُبَ آلخَشَبَ آللّازِمَ لِنيرانِ آلمِدْفَأَةِ في آلشِّتاءِ . وَكَما هِيَ آلعادةُ ، فَإِنَّ آلمَرْءَ لا يَشْعُرُ بِمُرورِ آلوَقْتِ عِنْدَما يَكونُ لَدَيْهِ أَعْمالٌ كَثيرةٌ .

إِنْقَضى عامٌ آخَرُ مِنْ عُمْري . وَسَقَطَ آلمَطَرُ غَزيرًا في شَهْرِ نُوفَمْبِر ، فَفاضَتْ مِياهُ آلنَّهْرِ . وَأَخَذَ آلبَطُّ يَسْبَحُ نَشيطًا في آلنَّهْرِ ، مُحْدِثًا جَلَبَةً عالِيةً . وَذاتَ يَوْمٍ دَفَعَ آلمَوْجُ بِإِحْدى آلبَطّاتِ بَعيدًا ، حَتّى بَلَغَتِ آلجِسْرَ ، فَأَسْرَعْتُ مَعَ أُخْتي آني لِإِنْقاذِها .

ظَهَرَ في تِلْكَ آللَّحْظَةِ رَجُلٌ يَرْكَبُ حِصانًا رائِعًا . كانَ هُوَ تُوم فاجَس ، قاطِعُ آلطَّريق .

صاحَ تُوم : « سَوْفَ أُنْقِذُ لَكُما آلبَطَّةَ . » وَهَمَسَ بِشَيْءٍ في أُذُنِ آلحِصانِ آلَّذي آنْدَفَعَ مُسْرِعًا وَسَطَ آلنَّهْرِ . وَعادَ تُوم بِآلبَطَّةِ حَيَّةً سَليمةً . وَقُلْتُ في نَفْسي : « حَقًّا إِنَّهُ لَحِصانٌ رائِعٌ ، هٰذا آلَّذي يَسْتَطيعُ أَنْ يَفْهَمَ حَديثَ صاحِبِهِ ! » وَوَقَفْتُ مَعَ آني نَتَطَلَّعُ إِلى آلحِصانِ .

سَأَلَني تُوم : « هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ بِإِمْكانِكَ أَنْ تَرْكَبَ حِصاني ؟ »

أَجَبْتُهُ : « أَسْتَطيعُ أَنْ أَرْكَبَ أَيَّ حِصانٍ . »

قالَ : « مِنْ حُسْنِ آلحَظِّ أَنَّ آلأَرْضَ رَخْوةٌ في هٰذا آلمَوْضِعِ ، وَلا تُهَدِّدُ بِإِصابةٍ خَطيرةٍ إِذا ما وَقَعْتَ عَلَيْها . أَنا تُوم فاجَس ابْنُ عَمِّكَ ، وَهٰذِهِ فَرَسي وِني . »

كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ مِنْ قَبْلُ أَنَّ وِني فَرَسٌ حَرونٌ تَرْفُضُ أَنْ يَرْكَبَها أَحَدٌ غَيْرُ صاحِبِها تُوم . وَلٰكِنَّني قُلْتُ في إِصْرارٍ : « سَوْفَ أُحاوِلُ رُكوبَها . » وَامْتَطَيْتُ صَهْوَةَ آلفَرَسِ . وَما إِنْ أَطْلَقَ تُوم صَيْحَةً قَصيرةً مُمَيَّزَةً حَتّى زادَتِ

آلفَرَسُ مِنْ سُرْعَتِها . وَلَمَّا أَطْلَقَ صَيْحةً أُخرى ، حاوَلَتْ أَنْ تَقْذِفَ بي بَعيدًا عَنْ ظَهْرِها ، غَيْرَ أَنَّني تَماسَكْتُ وَواصَلْتُ آلسَّيْرَ . وَأَخَذَتْ وِني تَقْفِزُ عالِيًا وَتَبْذُلُ أَقْصى جَهْدِها لِتَطْرَحَني أَرْضًا ، وَلٰكِنَّني اسْتَطَعْتُ آلإمْساكَ بِزِمامِها وَآلاسْتِمْرارَ في رُكوبِها . عِنْدَئِذٍ أَطْلَقَ تُوم صَيْحةً أُخرى ، فاسْتَدارَتِ آلفَرَسُ مُتَّجِهةً نَحْوَهُ . وَما إنْ أَتَتْ إلى بَوَّابةِ مَزْرَعَتِنا ، حَتَّى أَلْقَتْ بي بَعيدًا عَنْ ظَهْرِها .

قالَ تُوم : « لَقَدْ رَكِبْتَ وِني بِبَراعةٍ ، وَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّكَ سَتَسْتَطيعُ آلبَقاءَ طَويلًا هٰكَذا فَوْقَ ظَهْرِها . وَلِهٰذا فَسَوْفَ أُهْديكَ بُنْدُقِيَّةً جَديدةً . »

انْصَرَفَ آبْنُ عَمّي بَعْدَ أَنْ أَهْداني آلبُنْدُقِيَّةَ آلجَديدةَ . وَسَرْعانَ ما أَجَدْتُ آلرِّمايةَ بِها ، كَما فَعَلْتُ بِسابِقَتِها .

وَمَرَّتْ سَبْعُ سَنَواتٍ ، كَبِرْتُ خِلالَها وَأَصْبَحْتُ شابًّا .

الفَصْلُ آلثّامِنُ

الخالُ رِيُوبِن

كانَ مِسْتَر رِيُوبِن هَكّاباك ، مِنْ أَهالي دَلْفِرْتُون ، خالًا لِأُمّي . وَكانَ يَمْتَلِكُ أَكْبَرَ مَحَلٍّ لِبَيْعِ آلمَلابِسِ في تِلْكَ آلمَدينةِ . كانَتْ لَهُ حَفيدةٌ تُدْعى رُوث . وَكانَتْ أُمّي تَرْغَبُ في تَقْوِيةِ صِلاتِ آلوُدِّ مَعَهُ ، إذْ كانَتْ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ سَوْفَ يَتْرُكُ لَنا تَرِكَتَهُ آلكَبيرةَ بَعْدَ وَفاتِهِ .

كانَ آلخالُ رِيُوبِن يَحْضُرُ إلَيْنا كُلَّ عامٍ لِقَضاءِ عيدِ رَأْسِ آلسَّنةِ . وَكانَ يَرْحَلُ مِنْ بَلْدَتِهِ مُبَكِّرًا في آلصَّباحِ لِيَتَجَنَّبَ آلِالْتِقاءَ بِآلِ دُون عَلى آلطَّريقِ ، إذْ كانَ هٰؤُلاءِ آلقَوْمُ مَشْهورينَ بِآلكَسَلِ ، وَبِأَنَّهُمْ يَسْتَيْقِظونَ مِنَ آلنَّوْمِ عِنْدَ آلظُّهْرِ ، وَلا يَخْرُجونَ لِلسَّطْوِ وَآلنَّهْبِ إلّا في آلمَساءِ أَوْ بَعْدَ مُنْتَصَفِ آللَّيْلِ .

غَيْرَ أَنَّ آلخالَ رِيُوبِن أَخْطَأَ آلتَّقْديرَ في هٰذِهِ آلمَرَّةِ ، إذْ كانَ آلِ دُون قَدْ خَرَجوا مِنْ أَوْكارِهِمْ مُبَكِّرينَ في ذٰلِكَ آلعيدِ . وَلَمْ يَكونوا يَوْمَئِذٍ راغِبينَ في آلسَّرِقةِ ، وَإنَّما كانوا يَقْصِدونَ آلمِزاحَ وَآلمَرَحَ فَحَسْبُ .

جَلَسْنا في آنْتِظارِ آلخالِ بِآلمَنْزِلِ ، إلى أَنْ دَقَّتِ آلسّاعةُ آلواحِدةَ . وَكانَ الضَّبابُ في آلخارِجِ كَثيفًا ، لا نَسْتَطيعُ آلرُّؤْيةَ خِلالَهُ عَلى بُعْدِ عَشَرةِ أَقْدامٍ . وَطالَ بِنا آلآنْتِظارُ بَعْدَ ذٰلِكَ دونَ أَنْ يَحْضُرَ . وَكانَ كُلُّ شَيْءٍ مُعَدًّا لِقَضاءِ أُمْسِيَّةٍ مُمْتِعةٍ .

اِشْتَدَّ قَلَقُ والِدَتي ، وَقالَتْ لي : « أَخْشى أَنْ يَكونَ آلخالُ قَدْ سَقَطَ في

قَبْضَةِ هٰؤُلاءِ آلنَّاسِ ، يا جُون . » لَمْ تَكُنْ والِدَتي تَسْتَطيعُ أَنْ تَلْفِظَ كَلِمَتَيْ آلِ دُون ، فَكانَتْ تَدْعوهُمْ دائِمًا بِـ « هٰؤُلاءِ آلنَّاسِ » . وَأَجَبْتُها مازِحًا : « سَوْفَ آسَفُ حينَئِذٍ عَلى حالِ هٰؤُلاءِ آلنَّاسِ ، إِذْ لا يَلْبَثُ آلخالُ أَنْ يُنْشِئَ مَحَلًّا تِجارِيًّا إِلى جانِبِ آلنَّهْرِ ، يَبْتَلِعُ كُلَّ أَمْوالِهِمْ . »

ضَحِكَتْ أُمّي لِهٰذا آلرَّدِّ . وَلَمَّا نالَ مِنّا آلجُوعُ ، تَناوَلْنا طَعامَ آلغَداءِ . وَخَرَجْتُ بَعْدَهُ حامِلًا بُنْدُقِيَّتي لِأَبْحَثَ عَنِ آلخالِ رِيُوبِن . كانَ مِنَ آلعَسيرِ أَنْ أَشُقَّ طَريقي في آلضَّبابِ آلمُتَكاثِفِ . وَأَخَذْتُ أُنادي آسْمَهُ بَيْنَ آلحينِ وَآلحينِ ، وَأَنا أُفَتِّشُ بَيْنَ آلشُّجَيْراتِ آلمُتَناثِرَةِ عَلى طولِ آلطَّريقِ ، وَلٰكِنْ دونَ جَدْوى . وَلَمَّا أَعْياني آلبَحْثُ ، عَزَمْتُ عَلى أَنْ أَسْتَديرَ عائِدًا إِلى آلبَيْتِ عِنْدَ آلمُفْتَرَقِ آلتّالي لِلطُّرُقِ .

فَجْأَةً سَمِعْتُ صَوْتًا آدَمِيًّا صادِرًا مِنْ عُمْقِ آلضَّبابِ . وَتَوَجَّهْتُ صَوْبَ آلصَّوْتِ فَرَأَيْتُ رَجُلًا مُقَيَّدًا مُسْتَلْقِيًا فَوْقَ جَوادٍ صَغيرٍ . كانَتْ قَدَما آلرَّجُلِ فَوْقَ عُنُقِ آلجَوادِ ، وَرَأْسُهُ عِنْدَ ذَيْلِهِ . وَيَبْدو أَنَّ هٰذِهِ آلطَّريقَةَ آلغَريبَةَ لِلرُّكوبِ قَدْ أَفْزَعَتِ آلحِصانَ آلصَّغيرَ آلَّذي كانَ يَقْفِزُ ذاتَ آليَمينِ وَذاتَ آليَسارِ مُحاوِلًا أَنْ يَطْرَحَ آلرّاكِبَ عَنْ ظَهْرِهِ . كانَ خالي رِيُوبِن آلمِسْكينُ هُوَ ذٰلِكَ آلرّاكِبَ آلمُقَيَّدَ ، وَكانَ يُوشِكُ أَنْ يَموتَ مِنَ آلرُّعْبِ .

تَظاهَرْتُ بادِئَ آلأَمْرِ بِأَنَّني لا أَعْرِفُ آلرَّجُلَ ، وَأَمْسَكْتُ بِرَأْسِ آلحِصانِ قائِلًا : « لا تَخَفْ يا سَيِّدي ، فَلَنْ يُصيبَكَ أَذًى . »

صاحَ آلخالُ : « آلنَّجْدَةَ أَيُّها الصَّديقُ آلَّذي لا أَعْرِفُهُ ! لَقَدْ أَرْسَلَتْكَ آلسَّماءُ

لِإِنْقاذي مِنَ آللُّصوصِ آلَّذينَ سَلَبوني كُلَّ ما كُنْتُ أَحْمِلُهُ . »

صِحْتُ مُتَظاهِرًا بِآلدَّهْشَةِ : « عَجَبًا ! إِنَّكَ خالي رِيُوبِن ! لِماذا تَرْكَبُ آلجَوادَ بِهٰذِهِ آلصُّورَةِ آلهَزْلِيَّةِ ، وَأَنْتَ أَغْنى رَجُلٍ في دَلْقِرْتُون؟ ! »

لٰكِنَّهُ كانَ مِنَ آلإِعْياءِ بِحَيْثُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَكَلَّمَ كَثيرًا . وَأَنْزَلْتُهُ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِ آلحِصانِ ، وَوَضَعْتُهُ عَلى جَوادي ، وَحَمَلْتُهُ إِلى مَنْزِلي . وَغَلَبَهُ آلنُّعاسُ في آلطَّريقِ فَاسْتَسْلَمَ لِلنَّوْمِ إِلى أَنْ وَصَلْنا . وَما إِنْ دَخَلْنا آلبَيْتَ حَتّى نَفَضَ آلماءَ عَنْ مَلابِسِهِ ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنامَ مَرَّةً أُخْرى .

اِسْتَيْقَظَ آلخالُ رِيُوبِن بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ آلوَقْتِ ، وَأَخَذَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ قائِلًا : « لا بُدَّ أَنْ يَتَزَوَّجَ جُون رِد مِنْ رُوث ، وَتَؤُولَ إِلَيْهِ كُلُّ ثَرْوَتي . لَقَدْ سَلَبَ

آل دُون آلأَوْغادُ جُزْءًا كَبيرًا مِنْ هٰذِهِ آلثَّروةِ ، بَيْدَ أَنَّ جُون يَجِبُ أَنْ يَأْخُذَ كُلَّ ما تَبَقَّى مِنْها . »

اِسْتَأْنَفَ آلخالُ نَوْمَهُ ثانِيةً إلى أَنْ فَرَغْنا مِنْ إعْدادِ طَعامِ آلعَشاءِ .

في آلمَساءِ زارَنا آلمُزارِعُ سنُو ، عُمْدةُ آلقَرْيةِ مَعَ بَناتِهِ آلثَّلاثِ ، وَأَمْضَيْنا وَقْتًا مُمْتِعًا . غَيْرَ أَنَّ آلخالَ رِيُوبِن كانَ يَجْلِسُ طَوالَ آلمَساءِ في رُكْنٍ هادئٍ دُونَ أَنْ يَتَكَلَّمَ كَثيرًا . وَعِنْدَما اقْتَرَبَتِ آلسَّهْرةُ مِنْ نِهايَتِها تَطَرَّقَ آلحَديثُ إلى آلِ دُون ، فَقالَ آلخالُ :

« إنَّكُمْ جَميعًا جُبَناءُ ، أَيُّها آلفَلَّاحونَ ! إنَّكُمْ جَميعًا جُبَناءُ ! لِماذا لا تَتَّحِدونَ مَعًا وَتَخوضونَ آلمَعْرَكةَ ضِدَّ هٰؤُلاءِ آلأَنْذالِ وَتَقْذِفونَ بِهِمْ إلى خارِجِ آلمِنْطَقةِ ؟ أَنْتُمْ تَنْعَمونَ بِآلغِذاءِ آلطَّيِّبِ ، وَتُجيدونَ آلكَلامَ . وَلٰكِنْ عِنْدَما تُضْطَرُّونَ إلى آلقِتالِ ، فَإِنَّكُمْ تَتَراجَعونَ مَذْعورينَ . »

آلفَصْلُ آلتَّاسِعُ

زِيارةٌ لِقاضي آلإقْليمِ

في آلَيَوْمِ آلتَّالي ، عَزَمَ آلخالُ رِيُوبِن عَلى زِيارةِ رَئيسِ آلقُضاةِ في هٰذا آلجُزْءِ مِنَ آلمَمْلَكةِ ، وَآسْمُهُ لُورْد وِيشِيهالس .

اِسْتَقْبَلَنا آللُّورْدُ في وُدٍّ وَحَفاوةٍ ، وَضَحِكَ عِنْدَ سَماعِ قِصَّةِ آلخالِ ، ثُمَّ قالَ لَهُ : « وَلٰكِنْ لِماذا أَنْتَ مُتَأَكِّدٌ مِنْ أَنَّ آل دُون هُمُ آلَّذينَ سَلَبوا نُقودَكَ ؟ أَنْتَ تَقولُ إِنَّ ضَبابًا كَثيفًا كانَ يُخَيِّمُ عَلى آلمَكانِ ، فَهَلِ آسْتَطَعْتَ حِينَئِذٍ أَنْ تَرى آلرِّجالَ بِوُضوحٍ ؟ وَهَلْ يُمْكِنُكَ أَنْ تُثْبِتَ مَنْ كانَ مِنْهُمْ هُناكَ ؟ »

عِنْدَما رَأى آلخالُ أَنَّ آلقاضيَ غَيْرُ مُتَحَمِّسٍ لِمُساعَدَتِهِ ، ثارَ قائِلًا : « هَلْ هٰذِهِ هِيَ عَدالةُ آلقَضاءِ آلَّذي يَنْطِقُ بِاسْمِ جَلالةِ آلمَلِكِ ؟ سَوْفَ أَذْهَبُ بِنَفْسي إلى لَنْدَن وَأُخْبِرُ آلمَلِكَ كَيْفَ يُسيئونَ إلى عَدالةِ جَلالَتِهِ في إقْليمِ سُومِرْسِت . »

أَجابَ لُورْد وِيشِيهالس : « أوه ! إذًا فَقَدْ وَقَعَتْ هٰذِهِ آلجَريمةُ في سُومِرْسِت وَلٰكِنَّني أُحافِظُ عَلى آلأَمْنِ في إقْليمِ ديڤُونْشَير . عَلَيْكَ يا سَيِّدي بِآلذَّهابِ إلى آلقاضي في سُومِرْسِت . »

غادَرَ خالي رِيُوبِن مَنْزِلَ آلقاضي في غَضَبٍ شَديدٍ ، قائِلًا إنَّهُ سَوْفَ يَقْصِدُ رَجُلًا عَظيمًا في لَنْدَن هُوَ آلقاضي جِيفْريز . وَرَدَّدَ آلخالُ : « وَآلآنَ يا جُون

رِد ، تَذَكَّرْ هٰذِهِ ٱلكَلِماتِ الَّتي أَقولُها . إنَّ ٱلأَمْرَ لَنْ يَنْتَهِيَ عِنْدَ هٰذا ٱلحَدِّ ، إذْ لَدَيَّ خُطَّةٌ أُخْرى . إنَّني أَعْرِفُ في لَنْدَن رَجُلًا أَقْوى مِنَ ٱلمَلِكِ ذاتِهِ ، هُوَ ٱلقاضي جِيفْرِيز . وَلَسَوْفَ أَحْصُلُ عَلى خِطاباتِ تَوْصِيةٍ إلى هٰذا ٱلشَّخْصِ ٱلعَظيمِ . »

وَفي طريقِنا إلى ٱلمَنْزِلِ ، رَأَيْنا بَعْضَ أَزْهارِ ٱلرَّبيعِ ٱلجَميلةِ ، فَقالَ ٱلخالُ : « إنَّها لَأَزْهارٌ جَميلةٌ ! »

حَمَلَني مَرْأى تِلْكَ ٱلأَزْهارِ عَلى ٱلتَّفْكيرِ في لُورْنا دُون ، وَفي ذٰلِكَ ٱليَوْمِ ٱلبَعيدِ ٱلَّذي قابَلْتُها فيهِ . تُرى هَلْ خَطَرْتُ بِبالِها مُنْذُ ذٰلِكَ ٱليَوْمِ ؟

في ٱليَوْمِ ٱلتّالي أَعْرَبَ ٱلخالُ عَنْ رَغْبَتِهِ في رُؤْيةِ وادي آلِ دُون . وَقُلْتُ إنَّني أَعْرِفُ ٱلطَّريقَ إلَيْهِ ، فَسَأَلَني أَنْ آخُذَهُ إلى هُناكَ . وَبَدَأْنا ٱلرِّحْلةَ دونَ أَنْ نُخْبِرَ أَحَدًا بِٱلجِهةِ ٱلَّتي نَقْصِدُها . وَعَبَرْنا غابةَ باغْوِرْذي بِبُطْءٍ عَلى جَوادَيْنا ، ثُمَّ صَعِدْنا ٱلتِّلالَ ، إلى جانِبِ ٱلوادي ٱلَّذي يَسْكُنُهُ آلُ دُون . كانَ هُناكَ تَلٌّ مُرْتَفِعٌ عِنْدَ أَطْرافِ ٱلغابةِ ، وَكُنَّا نَسْتَطيعُ أَنْ نَرى وادِيَ آلِ دُون في وُضوحٍ تامٍّ أَسْفَلَ هٰذا ٱلتَّلِّ .

وَصَلْنا أَخيرًا إلى قِمَّةِ ٱلتَّلِّ ، وَنَظَرْنا مِنْ أَطْرافِ ٱلغابةِ إلى ٱلوادي ٱلَّذي يَسْكُنُهُ آلُ دُون . وَتَطَلَّعَ ٱلخالُ رِيُوبِن إلى ٱلتِّلالِ مِنْ حَوْلِهِ ، ثُمَّ قالَ : « مِنَ ٱلسَّهْلِ أَنْ يَسْتَوْلِيَ نَفَرٌ قَليلٌ مِنَ ٱلجُنودِ عَلى هٰذا ٱلوادي ، إذا ما نَصبوا مَدافِعَهُمْ عَلى قِمَمِ هٰذِهِ ٱلتِّلالِ . نَحْنُ لا نَحْتاجُ إلى أَكْثَرَ مِنْ ثَلاثةِ مَدافِعَ في

أَعْلى هٰذا ٱلتَّلِّ ، وَثَلاثةٍ أُخْرى عَلى قِمَّةِ ذٰلِكَ ٱلجَبَلِ ، حَتّى نَتَمَكَّنَ مِنْ سَحْقِ هٰذِهِ ٱلعِصابةِ . »

لَمْ أَكُنْ حِينَئِذٍ أُنْصِتُ إلى ما يَقولُهُ ٱلخالُ ، فَقَدْ كُنْتُ أَنْظُرُ إلى تِلْكَ ٱلفَجْوةِ ٱلصَّغيرةِ في ٱلصَّخْرِ ٱلَّتي سَبَقَ أَنْ سِرْتُ خِلالَها يَوْمًا . وَبَيْنَما كُنْتُ أَنْظُرُ إلى تِلْكَ ٱلفَجْوةِ رَأَيْتُ فَتاةً تَتَّجِهُ نَحْوَها وَتَمْضي إلى داخِلِها .. فَتاةً جَميلةً ، دَقيقةَ ٱلجِسْمِ ، بَيْضاءَ ٱللَّوْنِ . كانَتْ هِيَ لُورْنا دُون . وَشَعَرْتُ بِقَلْبي يَخْفِقُ بِشِدَّةٍ . وَعَرَفْتُ حِينَئِذٍ أَنَّ حَياتي قَدِ ٱرْتَبَطَتْ بِها بِطَريقةٍ ما .

ٱلْتَفَتَ ٱلخالُ رِيُوبِن نَحْوي قائِلًا : « يَجِبُ أَنْ تَزورَ هٰذا ٱلمَكانَ مَرَّةً أُخْرى . يَجِبُ أَنْ تُراقِبَ وادِيَ آلِ دُون . »

أَجَبْتُ ضاحِكًا : « أَجَلْ ، سَوْفَ أَفْعَلُ ذٰلِكَ بِٱلتَّأْكيدِ ... أَعِدُكَ بِذٰلِكَ يا خالي . »

الفَصْلُ ٱلعاشِرُ

زِيارةٌ أُخرى لِلُورْنا

بِمُجَرَّدِ أَنْ عادَ ٱلخالُ رِيُوبن إلى بَيْتِهِ ، أَخَذْتُ أُفَكِّرُ في زِيارةِ وادي آلِ دُون مَرَّةً أُخْرى . وَاشْتَرَيْتُ بَعْضَ ٱلمَلابِسِ ٱلجَديدةِ مِنْ بَلْدةِ بُورْلُوك ، ثُمَّ بَدَأْتُ ٱلرِّحْلةَ إلى صَخْرةِ ٱلشَّلَّالِ ٱلَّتي كُنْتُ قَدْ تَسَلَّقْتُها مُنْذُ سَنَواتٍ . وَلَقَدْ دَهِشْتُ عِنْدَما بَدَتْ لِيَ ٱلصَّخْرةُ حِينَئِذٍ أَصْغَرَ جِدًّا في ٱلحَجْمِ وَخاصَّةً بَعْدَ أَنْ كَبِرْتُ أَنا كَثيرًا . وَتَسَلَّقْتُها في سُهولةٍ وَيُسْرٍ ، وَسَرْعانَ ما وَصَلْتُ إلى ٱلقِمَّةِ . وَتَلَفَّتُّ حَوْلي بِحِرْصٍ وَحَذَرٍ قَبْلَ أَنْ أَخْطُوَ فَوْقَ ٱلأَرْضِ ٱلكَثيرةِ ٱلعُشْبِ إلى جانِبِ ٱلنَّهْرِ . كانَتِ ٱلأَشْجارُ حِينَئِذٍ قَدْ بَدَأَتْ تَكْشِفُ عَنْ أَوْراقِها ٱلصَّغيرةِ ٱليانِعةِ ، ٱلَّتي تَبْدو خَضْراءَ زاهِيةً في ضَوْءِ ٱلشَّمْسِ . وَكانَتِ ٱلسَّماءُ الصَّافِيةُ شَديدةَ ٱلزُّرْقةِ ، عَلى حِينَ أَخَذَتْ بَراعِمُ ٱلزَّهْرِ تَتَفَتَّحُ ، وَٱلطُّيورُ تُغَنِّي أَغاريدَ ٱلحُبِّ وَٱلغَزَلِ .

وَبَيْنَما كُنْتُ أَتَمَتَّعُ بِمَناظِرِ ٱلطَّبيعةِ وَأَصْواتِها ٱلسَّاحِرةِ ، سَمِعْتُ صَوْتًا أَجْمَلَ مِنْ صَوْتِ أَيِّ طائِرٍ . كانَ هُوَ صَوْتَ لُورْنا دُون . وَاخْتَبَأْتُ خَلْفَ ٱلصُّخورِ حَتَّى لا تَراني ٱلشَّادِيةُ ٱلفاتِنةُ فَتَخافَ وَتَفِرَّ هارِبةً . وَما هِيَ إلَّا دَقائِقُ مَعْدودةٌ حَتَّى أَخْرَجْتُ رَأْسي مِنْ وَراءِ ٱلصَّخْرةِ فَرَأَيْتُ مَنْظَرًا فَريدًا لا تَزالُ ذِكْراهُ حَيَّةً في خاطِري إلى ٱليَوْمِ .

كانَتْ لُورْنا دُون قادِمةً نَحْوي عَلى ٱلطَّريقِ ٱلَّذي إلى جانِبِ ٱلنَّهْرِ . لَمْ

أَسْتَطِعْ أَنْ أَرى وَجْهَها تَمامًا ، وَإنَّما لَمَحْتُ شَعْرَها ٱلأَسْوَدَ ٱلرَّائِعَ ٱلجَمالِ يُحيطُ بِهِ إكْليلٌ مِنَ ٱلأَزْهارِ ٱلبَيْضاءِ . وَكانَ ٱلضَّوْءُ ٱلشَّاحِبُ فَوْقَ ٱلتِّلالِ ٱلغَرْبِيَّةِ يُلْقي بِظِلِّ خَلْفَها ، كَما لَوْ كانَتِ ٱلشَّمْسُ ٱلغارِبةُ تَتَباطَأُ في ٱلرَّحيلِ لِتَتَزَوَّدَ مِنْها بِنَظْرةٍ أَخيرةٍ . وَٱلآنَ ، وَبَعْدَ أَنْ تَقَدَّمْتُ في ٱلعُمْرِ ، ما زالَ مَشْهَدُ ٱلشَّمْسِ عِنْدَ ٱلغُروبِ يُذَكِّرُني بِلُورْنا دُون في ذٰلِكَ ٱليَوْمِ ٱلمَشْهودِ .

خَرَجْتُ مِنْ خَلْفِ الصُّخورِ ، فَلَمَّا رَأَتْني اسْتَدارَتْ كَما لَوْ كانَتْ تَتَهَيَّأُ لِلْهَرَبِ ، إذْ يَبْدو أَنَّها ارْتاعَتْ مِنْ ضَخامةِ جِسْمي . وَسَقَطْتُ عَلى ٱلعُشْبِ ، كَما سَقَطْتُ أَمامَها مُنْذُ سَبْعِ سَنَواتٍ مَضَتْ ، عِنْدَما صَعِدْتُ إلى قِمَّةِ ٱلشَّلَّالِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، وَصِحْتُ قائِلًا : « لُورْنا دُون ! » وَأَدْرَكْتُ مِنْ ضَحْكَتِها ٱلرَّقيقةِ أَنَّها قَدْ عَرَفَتْني ، وَأَنَّها سُرَّتْ بِرُؤْيَتي . غَيْرَ أَنَّها تَظاهَرَتْ بِٱلغَضَبِ وَصاحَتْ قائِلةً : « يا لَلْعَجَبِ ! وَمَنْ تَكونُ يا سَيِّدي ؟ وَكَيْفَ عَرَفْتَ اسْمِيَ ؟ »

أَجَبْتُها : « أَنا جُون رِد ، ذٰلِكَ ٱلغُلامُ ٱلصَّغيرُ الَّذي أَعْطاكِ بَعْضَ ٱلسَّمَكِ مُنْذُ سَبْعِ سَنَواتٍ . »

قالَتْ : « أَجَلْ ، أَذْكُرُ ذٰلِكَ ٱلغُلامَ ٱلصَّغيرَ ٱلَّذي كانَ مُرْتَعِبًا جِدًّا يَوْمَئِذٍ ، وَالَّذي اخْتَبَأَ هُنا في ٱلماءِ . وَلٰكِنْ يَبْدو أَنَّكَ قَدْ نَسيتَ أَنَّ هٰذا ٱلمَكانَ بالِغُ ٱلخُطورةِ . »

لاحَظْتُ خَوْفَها . فَقَدْ كانَتْ تَخْشى أَنْ يَراني أَحَدُ أَفْرادِ عائِلَتِها فَيُطْلِقَ

آلنّارَ عَلَيَّ في آلحالِ . وَكانَتْ عَيْناها آللّامِعَتانِ آلسّاحِرَتانِ مُتَّجِهَتَيْنِ نَحْوي طَوالَ آلوَقْتِ وَهِيَ تَتَحَدَّثُ . وَلَمْ أَتَمَكَّنْ مِنَ آلرَّدِّ عَلَيْها . كُنْتُ أُحِسُّ أَنَّني

سَوْفَ أُحِبُّها إلى آلأَبَدِ ، وَلٰكِنّي أَشْعُرُ أَنَّني لَسْتُ جَديرًا بِها . وَرَأَيْتُ أَنَّهُ مِنَ آلأَفْضَلِ أَنْ أُغادِرَ آلمَكانَ في آلحالِ ، فَقُلْتُ :

« سَوْفَ أَمْضي يا آنِسةُ لُورْنا ، لِأَنَّني أَرى أَنَّكِ خائِفةٌ ، وَأَعْرِفُ مِقْدارَ آلأَلَمِ آلَّذي قَدْ يُصيبُكِ إذا ما أَتى واحِدٌ مِنْهُمْ وَقَتَلَني آلآنَ ، كَما أَعْرِفُ أَنَّ أُمّي سَوْفَ تَموتُ حُزْنًا إذا ما وَقَعَ ذٰلِكَ . وَلٰكِنْ حاوِلي أَنْ تَذْكُريني بَيْنَ آلحِينِ وَآلآخَرِ ، وَأَعِدُكِ بِأَنَّني سَوْفَ آتي ثانِيةً ، وَأُحْضِرُ لَكِ هَديَّةً مِنَ آلبَيْضِ آلطّازَجِ . »

أَجابَتْ : « أَشْكُرُكَ كَثيرًا ، وَلٰكِنْ يَجِبُ أَلّا تَبْحَثَ عَنّي عِنْدَما تَأْتي يَكْفي أَنْ تَتْرُكَ آلبَيْضَ في آلمَخْبَإِ آلصَّغيرِ آلَّذي عَمِلْتَهُ بَيْنَ آلصُّخورِ . »

عِنْدَ آلوَداعِ آبْتَسَمَتْ لِيَ آبْتِسامةً رَقيقةً مُشْرِقةً نَفَذَتْ إلى أَعْماقِ قَلْبي وَمَدَّتْ لي يَدَها فَلَمَسْتُها بِرِقَّةٍ ، ثُمَّ مَضَيْتُ أَهْبِطُ آلصَّخْرةَ .

لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا طَوالَ آلأُسْبوعِ آلتّالي سِوى أَنْ أَحْلُمَ وَأَحْلُمَ بِلُورْنا . لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُرَكِّزَ في أَيِّ عَمَلٍ مُدَّةً طَويلةً ، وَظَنَّ آلجَميعُ أَنَّني مَريضٌ . وَقالَ خادِمُنا جُون فراي لِلنّاسِ إنَّ كَلْبًا مَسْعورًا قَدْ عَضَّني ، وَكادَتْ أُمّي أَنْ تُصَدِّقَ هٰذا آلنَّبَأَ . وَفي آلمَساءِ كانَتْ أُمّي تَجْلِسُ إلى جانِبي وَتُوَجِّهُ إلَيَّ أَسْئِلةً كَثيرةً ، وَكُنْتُ زاهِدًا في آلإجابةِ عَنْ أَيِّ سُؤالٍ . كُنْتُ أُريدُ فَحَسْبُ أَنْ أَجْلِسَ إلى جِوارِ آلمِدْفَأَةِ وَأُفكِّرَ في لُورْنا دُون .

الفَصْلُ الحادي عَشَرَ

قِصَّةُ لُورْنا

ما إنْ مَرَّ أُسْبوعانِ حَتَّى مالَ الجَوُّ إلى الدِّفْءِ ، وَحَلَّ الرَّبيعُ بِكُلِّ سِحْرِهِ وَجَمالِهِ ، وَاخْضَرَّتِ الحُقولُ ، وَاكْتَسَتْ جَوانِبُ التِّلالِ بِأَزْهارٍ زاهيةٍ جَميلةٍ .

ذَهَبْتُ ذاتَ يَوْمٍ إلى شَجَرةٍ عَتيقةٍ ، وَحَفَرْتُ عَلى جِذْعِها هٰذَيْنِ الحَرْفَيْنِ : ل . د . وَبَيْنَما كُنْتُ أَفْعَلُ ذٰلِكَ ، تَمَلَّكَتْني رَغْبَةٌ قَوِيَّةٌ في أَنْ أَرى لُورْنا مَرَّةً أُخْرى ، فَتَوَجَّهْتُ في هُدوءٍ إلى البَيْتِ ، وَأَخْرَجْتُ مَلابِسي الجَديدةَ . وَحَرَصْتُ أَلَّا تَراني شَقيقَتاي خارِجًا في هٰذِهِ المَلابِسِ ، فَذَهَبْتُ لِارْتِدائِها وَراءَ بَعْضِ الشُّجَيْراتِ خَلْفَ المَنْزِلِ . وَخَرَجْتُ قاصِدًا غابَةَ باغْوِرْذي وَصَعِدْتُ النَّهْرَ إلى أَنْ بَلَغْتُ صَخْرَةَ الشَّلَّالِ ، ثُمَّ تَسَلَّقْتُ الصَّخْرَةَ بِصُعوبةٍ بالِغةٍ ، إذْ كانَتِ المِياهُ تَتَدَفَّقُ عَلَيْها بِشِدَّةٍ . وَما إنْ جَلَسْتُ عَلى القِمَّةِ لِأَسْتَريحَ تَحْتَ ظِلالِ الأَشْجارِ حَتَّى رُحْتُ في نَوْمٍ عَميقٍ .

اسْتَيْقَظْتُ عَلى صَوْتِ خَريرِ المِياهِ الجارِيةِ في نُهَيْرٍ صَغيرٍ إلى جانِبي ، فَرَأَيْتُ لُورْنا واقِفةً أَمامي تَحْجُبُ عَنِّي أَشِعَّةَ الشَّمْسِ . وَسَرْعانَ ما تَناوَلَتْ يَدي لِتُساعِدَني عَلى النُّهوضِ قائِلةً : « هَلْ جُنِنْتَ يا سَيِّدُ رِد ؟ »

أَجَبْتُ : « لَسْتُ مَجْنونًا ، وَإِنَّما أَنا نِصْفُ نائِمٍ . »

قالَتْ : « إذًا ، هَيَّا نَبْتَعِدُ عَنْ هٰذا المَكانِ حِفاظًا عَلى حَياتِكَ . فَسَوْفَ يَأْتي الحُرَّاسُ إلى هُنا حالًا . أَسْرِعْ يا سَيِّدُ رِد وَدَعْني أَلْتَمِسُ لَكَ مَخْبَأً . »

قُلْتُ : « لَنْ أَتَحَرَّكَ خُطْوةً واحِدةً مِنْ هُنا إلَّا إذا دَعَوْتِني بِاسْمي الأَوَّلِ : جُون . »

فَقالَتْ : « حَسَنًا ، إذًا أَسْرِعْ يا سَيِّدُ جُون رِد إذا كُنْت تُريدُ الإِبْقاءَ عَلى حَياتِكَ . » وَقادَتْني ، دُونَ كَلِمةٍ أُخْرى ، إلى مَخْبَئِها بَيْنَ الصُّخورِ . وَرَأَيْتُ ثانِيةً تِلْكَ الفَجْوةَ الَّتي سَلَكْتُها مُنْذُ سَنَواتٍ . كانَتْ هُناكَ بِضْعُ دَرَجاتٍ حَجَرِيَّةٍ مَنْحوتةٍ في الصَّخْرِ ، وَإلى جانِبِها بَعْضُ الشُّجَيْراتِ القَصيرةِ السَّميكةِ . وَأَزاحَتْ لُورْنا الشُّجَيْراتِ جانِبًا ، كاشِفةً عَنْ طَريقٍ صَغيرٍ يَمُرُّ خِلالَ الصَّخْرِ .

تَبِعْتُها في جَهْدٍ شَديدٍ بِسَبَبِ ضَخامةِ جِسْمي الَّتي لَمْ تَكُنْ تُناسِبُ ضِيقَ المَكانِ . وَضَحِكَتْ لُورْنا عِنْدَما رَأَتِ المُحاوَلاتِ الَّتي بَذَلْتُها لِكَيْلا تَصْطَدِمَ رُكْبَتايَ وَذِراعاي كَثيرًا بِالصَّخْرِ ، فَغَضِبْتُ لِذٰلِكَ . وَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ أَتَيْنا إلى فُسْحةٍ صَغيرةٍ بَديعةٍ تُظَلِّلُها السَّماءُ الزَّرْقاءُ ، وَتَحُفُّ بِجَوانِبِها الصُّخورُ العالِيةُ . وَكُنْتُ مُسْتَغْرِقًا في التَّمَتُّعِ بِجَمالِ تِلْكَ الفُسْحةِ ، حِينَ فاجَأَتْني لُورْنا بِالسُّؤالِ ضاحِكةً :

« أَيْنَ البَيْضُ الطَّازَجُ يا سَيِّدُ رِد ؟ أَمْ أَنَّ الدَّجاجةَ الزَّرْقاءَ لَمْ تَعُدْ تَبيضُ ؟ »

لَقَدْ ظَنَّتْ لُورْنا أَنَّني نَسيتُ ذٰلِكَ الأَمْرَ ، غَيْرَ أَنَّني كُنْتُ أَحْتَفِظُ بِالبَيْضِ في قُبَّعَتي ، وَقَدَّمْتُهُ إلَيْها قائِلًا : « كانَ في إمْكاني أَنْ أُحْضِرَ لَكِ أَكْثَرَ مِنْ هٰذا ، وَلٰكِنَّني خَشيتُ أَنْ يَنْكَسِرَ في الطَّريقِ . »

ما إنْ رَأَتْ لُورْنا البَيْضَ حَتَّى أَجْهَشَتْ بِالبُكاءِ . وَخَشِيتُ أَنْ أَكونَ قَدْ جَرَحْتُ شُعورَها بِكَلِمةٍ غَيْرِ مَقْصودةٍ ، وَلٰكِنَّها قالَتْ مُوضِّحةً سَبَبَ

بُكائِها : « لَمْ يَسْبِقْ أَنْ عامَلَني أَحَدٌ بِمِثْلِ هٰذِهِ ٱلرِّقَّةِ . إِذْ لا يَعْرِفُ ٱلرِّقَّةَ أَحَدٌ في هٰذا ٱلمَكانِ . »

جَلَسْنا فَوْقَ صَخْرةٍ ، وَأَخَذَتْ لُورْنا تُحَدِّثُني عَمَّا كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ أَعْرِفَهُ عَنْ حَياتِها . وَبَدَأَتْ حَديثَها قائِلةً :

« هُناكَ شَخْصانِ فَقَطْ في هٰذا ٱلوادي كَثيرًا ما يُساعِدانِني أَوْ يُجيبانِ عَنْ أَسْئِلَتي : أَحَدُهُما جَدِّي سِيْر إِنْسُور دُون ، وَٱلثّاني حَكيمُ ٱلأُسْرةِ أَوْ مُسْتَشارُها ٱلَّذي يُقَدِّمُ لِأَفْرادِها ٱلمَشورةَ في ٱلمَواقِفِ ٱلَّتي تَسْتَدعي ذٰلِكَ . وَجَدِّي رَجُلٌ عَجوزٌ شَديدُ ٱلاعْتِزازِ بِنَفْسِهِ ، يَعْرِفُ الخَطَأَ مِنَ ٱلصَّوابِ ، وَلٰكِنَّهُ لا يُحِبُّ إِطالةَ ٱلنَّظَرِ في ٱلتَّحْديدِ بَيْنَهُما . أَمَّا ٱلمُسْتَشارُ فَإِنَّهُ يَتَكَلَّمُ كَثيرًا ، لِأَنَّهُ مُغْرَمٌ بِٱلقَوْلِ دُونَ ٱلفِعْلِ .

« وَمُنْذُ أَنْ ماتَتْ عَمَّتي سابينا لا أَجِدُ أَحَدًا أَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ . إِنَّنا نَمْتَلِكُ واديًا رائِعًا ، وَأَنا أُحِبُّ ٱلأَمْنَ وَٱلسَّلامَ ، كَما أُحِبُّ ٱلهُدوءَ وَٱلقِراءَةَ ، وَلٰكِنَّ كُلَّ ما يَدورُ حَوْلي هُنا هُوَ ٱلقَتْلُ وَٱلنَّهْبُ وَٱلكَلامُ ٱلخَشِنُ ٱلبَذيءُ . وَكَثيرًا ما يَدْعونَني هُنا بِٱلمَلِكةِ وَيَزْعُمونَ أَنَّني سَأَكونُ مَلِكةً عَلى هٰذا ٱلوادي . غَيْرَ أَنَّني لا أَشْعُرُ بِٱلانْتِماءِ إِلَيْهِمْ ، وَأَمْقُتُ مَسْلَكَهُمْ في ٱلحَياةِ . وَهُناكَ شَخْصٌ يُريدُ أَنْ يَتَزَوَّجَني ، وَهُوَ كارْفَر ، ابْنُ ٱلمُسْتَشارِ . إِنَّهُ أَقْوى وَأَشْجَعُ ٱلرِّجالِ في آلِ دُون ، وَلٰكِنَّهُ أَخْشَنُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ وَحْشِيَّةً . وَأَنا لا أُحِبُّهُ ، وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُجْبِرُني عَلى ٱلزَّواجِ بِهِ . وَكَثيرًا ما يَأْتي وَيُقَدِّمُ إِلَيَّ جَواهِرَ وَحُليًّا سَرَقَها مِنَ ٱلآخَرينَ . »

أَدْرَكَتْ مِنَ ٱلنَّظْرةِ ٱلَّتي ارْتَسَمَتْ حِينَئِذٍ عَلى وَجْهي أَنَّني قَدْ سَمِعْتُ

بِكارْفَر مِنْ قَبْلُ ، إِذْ ما إِنْ طَرَقَ اسْمُهُ مَسْمَعي ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ يُجْبِرُ لُورْنا عَلى ٱلزَّواجِ بِهِ ، حَتّى ثارَتْ ثائِرَتي ، وَوَدِدْتُ لَوْ أَنَّني أَحْضَرْتُ بُنْدُقِيَّتي لِأَقْتُلَهُ في ٱلحالِ .

اسْتَأْنَفَتْ لُورْنا ٱلحَديثَ : « كانَتِ ٱلعَمَّةُ سابينا تُؤْنِسُ وَحْشَتي ، لٰكِنَّها ماتَتْ . وَكانَتْ أُمًّا رَءُومًا لي ، وَهِيَ ٱلَّتي عَلَّمَتْني كُلَّ ما أَعْرِفُهُ ٱلآنَ مِنْ أَشْياءَ طَيِّبةٍ في ٱلحَياةِ . لَقَدْ ماتَتْ مُنْذُ عامٍ ، وَمُنْذَ ذٰلِكَ ٱلحِينِ ، لا أَجِدُ مَنْ أَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ سِوى خادِمَتي ٱلصَّغيرةِ : جُويني كارْفاكْس وَهِيَ فَتاةٌ صَغيرةٌ وَجَدْناها بَيْنَ ٱلتِّلالِ وَكادَتْ أَنْ تَموتَ لَوْ لَمْ نُدْرِكْها . وَكانَ أَبوها قَدْ وَلّى هارِبًا ذاتَ يَوْمٍ ، وَٱنْقَطَعَتْ أَخْبارُهُ مُنْذُ ذٰلِكَ ٱلحِينِ . وَهِيَ قَبيحةُ ٱلشَّكْلِ جِدًّا ، وَلا أَحَدَ مِنَ ٱلرِّجالِ يُحِبُّ ٱلنَّظَرَ إِلَيْها . وَهِيَ تَسْتَطيعُ أَنْ تَجُولَ في أَيِّ مَكانٍ دُونَ أَنْ يَمْنَعَها ٱلحُرّاسُ .

« وَذاتَ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ يولْيَه ٱلماضي وَقَعَ لي حادِثٌ رَهيبٌ ، وَكُلَّما تَذَكَّرْتُهُ شَعَرْتُ بِٱلفَزَعِ . كُنْتُ في طَريقي إِلى ٱلبَيْتِ ، عائِدةً مِنْ هٰذا ٱلمَكانِ ، عِنْدَما خَرَجَ شابٌّ بَغْتةً مِنْ خَلْفِ ٱلأَشْجارِ . وَكانَ يَبْدو أَنيقًا في رِدائِهِ ٱلحَريريِّ ذي ٱللَّوْنَيْنِ ٱلأَحْمَرِ وَٱلأَخْضَرِ ، وَكانَ يَحْمِلُ في يَدِهِ سَيْفًا صَغيرًا . وَبادَرَني قائِلًا : (أَنا ٱللُّوردُ أَلان برانْدير ، ٱبْنُ خالِكِ ، وَقَدْ عَيَّنَتْني ٱلحُكومةُ وَصِيًّا عَلَيْكِ إِلى أَنْ تَبْلُغي ٱلحادِيةَ وَٱلعِشْرينَ مِنَ ٱلعُمْرِ . وَسَوْفَ أَقومُ مِنَ ٱلآنَ بِتَدْبيرِ شُؤُونِكِ .)

« أَجَبْتُ بِدَهْشةٍ : (أَنْتَ وَصِيٌّ عَلَيَّ !) ثُمَّ أَضَفْتُ ضاحِكةً : (وَلٰكِنْ كَيْفَ ، وَعُمْرُكَ قَريبٌ مِنْ عُمْري !) فَأَجابَني قائِلًا : (لَعَلَّكِ عَلى حَقٍّ .

إنَّني أَقْوى وَأَكْبَرُ سِنًّا مِمَّا أَبْدو . وَلَوْ هاجَمَني أَشَدُّ آلرِّجالِ في آلِ دُون لَشَطَرْتُهُ نِصْفَيْنِ !)

« قُلْتُ عَلى آلفَوْرِ : (اِخْفِضْ صَوْتَكَ ، فَقَدْ يَسْمَعُكَ واحِدٌ مِنْهُمْ . يَجِبُ أَنْ تَذْهَبَ آلآنَ !) وَكانَ آلظَّلامُ قَدْ تَسَلَّلَ إلى آلمَكانِ ، وَكانَ آلجَوُّ يُنْذِرُ بِعاصِفةٍ شَديدةٍ . وَما لَبِثَ آلشَّابُّ أَنْ قالَ : (يا آبْنةَ عَمَّتي آلعَزيزةَ ، أَعْطِني زَهْرةً واحِدةً كَيْ أَتَذَكَّرَكِ وَسَوْفَ أَعودُ في آلقَريبِ آلعاجِلِ .)

« فَجْأَةً هَبَطَ عَلَيْنا كارْڤَر دُون صائِحًا : (هٰذا ما لَنْ تَفْعَلَهُ أَبَدًا !)

« وَأَخَذَ أَلان بَيْنَ ذِراعَيْهِ ، وَرَفَعَهُ إلى أَعْلى كَما يَرْفَعُ طِفْلًا صَغيرًا ، ثُمَّ اخْتَفى بِهِ في جَوْفِ آلظَّلامِ . وَسَمِعْتُ صَوْتَ ارْتِطامِ جِسْمٍ ثَقيلٍ بِآلأَرْضِ ، وَلَمْ أَسْمَعْ صَرْخةً ، غَيْرَ أَنَّني عَرَفْتُ ما حَدَثَ : فَقَدْ لَقِيَ آلفَتى آلمِسْكينُ مَصْرَعَهُ بِيَدِ كارْڤَر ! وَمُنْذُ ذٰلِكَ آلَيوْمِ وَأَنا أَشْعُرُ بِآلأَسى وَآلوَحْشةِ . إنَّ هٰذا آلوادِيَ يَخْلو مِنَ آلبَهْجةِ ، وَلا تَجِدُ فيهِ سِوَى آلخَوْفِ وَآلتَّعاسةِ . »

كانَ آللَّيْلُ قَدْ حَلَّ عِنْدَما أَنْهَتْ لُورْنا قِصَّتَها ، فَقالَتْ خائِفةً : « سَوْفَ يَأْتي آلُ دُون . يَجِبُ أَنْ تَذْهَبَ آلآنَ ، وَلا تَعُدْ قَبْلَ انْقِضاءِ شَهْرٍ . اِنْتَظِرْ شَهْرًا ، ثُمَّ عُدْ . »

قُلْتُ لَها : « وَلٰكِنْ رُبَّما احْتَجْتِ إلَيَّ قَبْلَ انْقِضاءِ هٰذا آلوَقْتِ . »

أَشارَتْ إلى حَجَرٍ أَبْيَضَ كَبيرٍ قائِلةً : « يُمْكِنُكَ أَنْ تَرَى ذٰلِكَ آلحَجَرَ بِوُضوحٍ مِنَ آلتَّلِّ آلمُقابِلِ . وَسَوْفَ أَضَعُ عَلَيْهِ قِطْعةً مِنَ آلقُماشِ آلأَسْوَدِ إذا احْتَجْتُ إلَيْكَ . »

وَسارَتْ مُسْرِعةً بَيْنَ آلأَشْجارِ ، وَهَبَطْتُ آلصَّخْرةَ عائِدًا إلى مَنْزِلي .

الفَصْلُ ٱلثَّانيَ عَشَرَ

جِيرِيمي ستِكِلْز

اِقْتَرَبَ شَهْرُ ٱلِانْتِظارِ مِنْ نِهايَتِهِ . وَكُنْتُ أَذْهَبُ كُلَّ يَوْمٍ لِأَرَى ٱلحَجَرَ ٱلأَبْيَضَ ، وَأَنا دائِمُ ٱلتَّفْكيرِ في لُورْنا دُون . وَكانَ يُؤَرِّقُني ٱلخَوْفُ مِنْ أَنْ يَفوزَ بِها دُوني أَحَدُ ٱلشُّبَّانِ ٱلنُّبَلاءِ مِنْ ذَوي ٱلأَصْلِ ٱلعَريقِ .

في عَصْرِ أَحَدِ ٱلأَيَّامِ ، وَبَعْدَ أَنْ فَرَغْتُ مِنْ إِطْعامِ ٱلخَيْلِ ، رَأَيْتُ وَأَنا عائِدٌ إِلى ٱلمَنْزِلِ رَجُلًا قادِمًا عَلى ظَهْرِ جَوادِهِ مِنْ ناحِيَةِ ٱلنَّهْرِ . وَظَنَنْتُهُ أَحَدَ ٱلمُسافِرينَ ، وَلٰكِنَّهُ تَوَقَّفَ عِنْدَ بَوَّابَةِ مَنْزِلِنا ، وَلَوَّحَ بِشَيْءٍ مَا في يَدِهِ صائِحًا : « بِاسْمِ ٱلمَلِكِ ! » وَما إِنْ رَآني حَتَّى صاحَ ثانِيَةً : « تَعالَ يا فَتَى ! » وَسِرْتُ نَحْوَهُ في بُطْءٍ ، إِذْ كُنْتُ لا أُحِبُّ أَنْ أُسْرِعَ إِلى أَيِّ فَرْدٍ .

سَأَلَني ٱلرَّجُلُ : « هَلْ هٰذِهِ مَزْرَعَةُ رِد ؟ »

أَجَبْتُهُ : « أَجَلْ ، يا سَيِّدي . إِنَّها مَزْرَعَةُ رِد . تَفَضَّلْ بِٱلدُّخولِ لِنُقَدِّمَ لَكَ ٱلطَّعامَ . »

كانَ ٱلرَّجُلُ في حَوالَى ٱلأَرْبَعينَ مِنْ عُمْرِهِ ، وَتَبْدو عَلى وَجْهِهِ سِماتُ ٱلصَّرامَةِ ، وَلَهُ عَيْنانِ صَغيرَتانِ سَريعَتا ٱلحَرَكَةِ .

صِحْتُ مُناديًا آني لِتُعِدَّ لِلرَّجُلِ شَيْئًا مِنَ ٱللَّحْمِ يَتَناوَلُهُ عَلى ٱلغَداءِ .

قالَ ٱلرَّجُلُ : « نَعَمْ ، أَنا جائِعٌ ، غَيْرَ أَنَّني لَنْ أَتَناوَلَ أَيَّ طَعامٍ أَوْ شَرابٍ قَبْلَ أَنْ أَرَى جُون رِد بِعَيْنَيْ رَأْسي . »

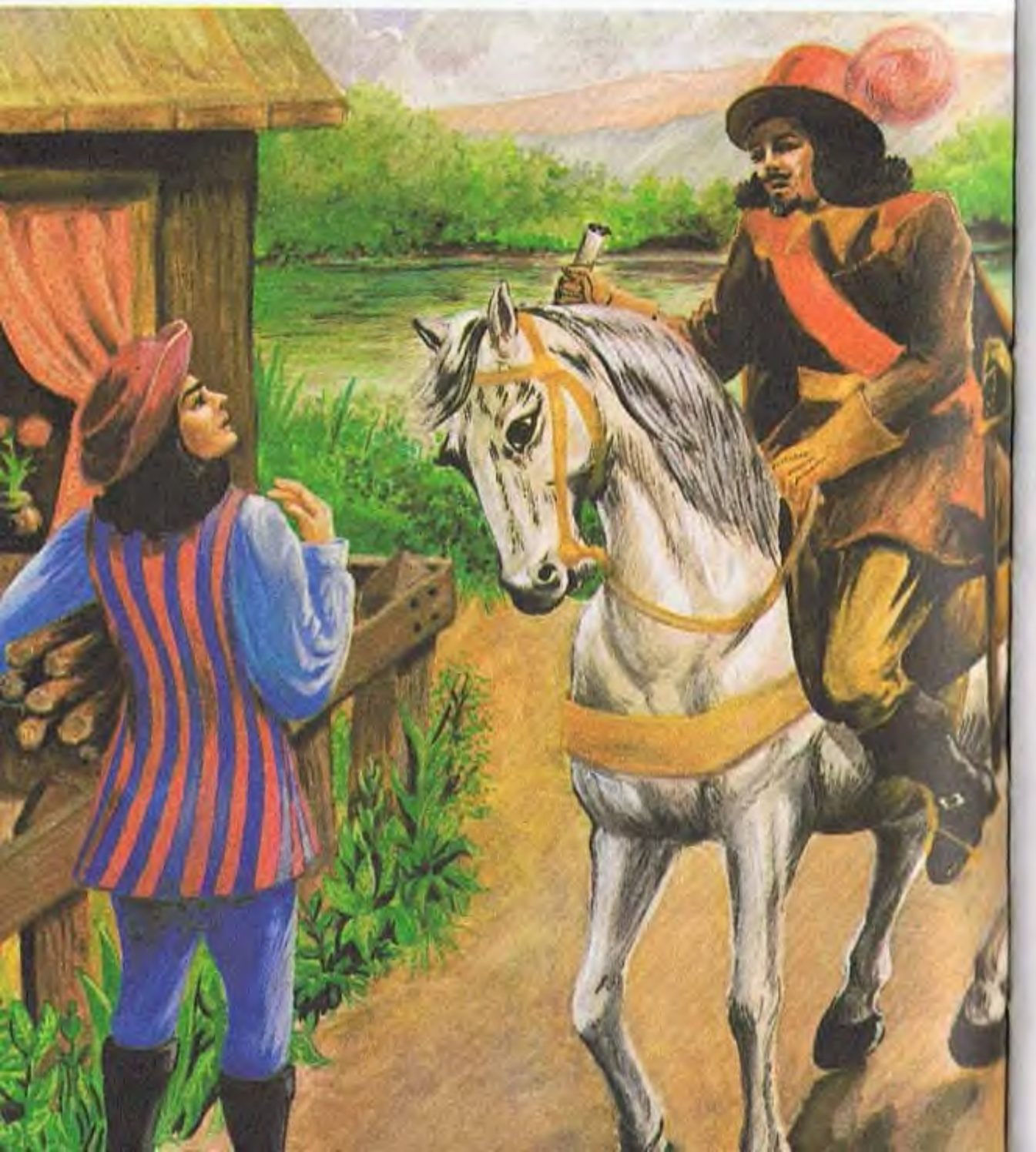

أَجَبْتُ : « لَقَدْ رَأَيْتُهُ لِلْتَّوِّ . أَنا جُون رِد . »

قالَ الرَّجُلُ : « وَأنا جِيرِيمي ستِكِلْز ، خادِمُ آلمَلِكِ . بِاسْمِ آلمَلِكِ ، أُعْطيكَ هٰذا آلأَمْرَ . »ناوَلَني آلرَّجُلُ خِطابًا يَأْمُرُني بِآلتَّوَجُّهِ إلى لَنْدَن لِلْإِدْلاءِ لِقُضاةِ آلمَلِكِ بِكُلِّ ما أَعْرِفُ عَنْ آلِ دُون ، وَعَنْ أَفْعالِهِمِ آلمُخالِفةِ لِلْقانونِ .

انْتَظَرْتُ خَمْسةَ أَيَّامٍ عَلى أَمَلِ أَنْ أَرَى آلإشارةَ آلمُتَّفَقَ عَلَيْها مَعَ لُورْنا دُون وَلَمَّا لَمْ أَرَ تِلْكَ آلإشارةَ ، بَدَأْتُ آلرِّحْلةَ إلى لَنْدَن مَعَ جِيرِيمي ستِكِلْز .

الفَصْلُ آلثَّالِثَ عَشَرَ

زِيارَتي لِلَنْدَن

كانَتِ آلرِّحْلةُ إلى لَنْدَن في تِلْكَ آلأَيَّامِ طَويلةً وَمَحْفوفةً بِآلمَخاطِرِ .

وَصَلْنا إلى بُورْلُوك في مَوْعِدِ آلغَداءِ . وَقَضَيْنا آللَّيْلَ مَعَ أَحَدِ أَقارِبِ أُمّي في بَلْدةِ دَنِسْتَر ، ثُمَّ تَوَجَّهْنا إلى بِردجْوُتَر . وَهٰكَذا واصَلْنا آلسَّفَرَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ إلى أَنْ وَصَلْنا إلى مَدينةِ لَنْدَن .

لَمْ تَجْذِبْني لَنْدَن ، وَلَمْ يُعْجِبْني فِيها سِوَى نَهْرِ آلتِّيمز ، أَمَّا آلشَّوارِعُ فَقَدْ كانَتْ قَذِرةً ، صاخِبةً تَعِجُّ بِآلنَّاسِ .

مَكَثْتُ في لَنْدَن شَهْرَيْنِ حَتَّى كادَتْ نُقودي أَنْ تَنْفَدَ . وَذَهَبْتُ إلى آلمَحاكِمِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ دُونَ أَنْ أَتَمَكَّنَ مِنَ آلإدْلاءِ بِأَقْوالي أَمامَ آلقاضي ، وَدُونَ أَنْ أَجِدَ أَحَدًا يُرْشِدُني إلى ما يَجِبُ أَنْ أَفْعَلَهُ .

بَيْنَما كُنْتُ جالِسًا في قاعةِ آلمَحْكَمةِ ذاتَ يَوْمٍ ، جاءَني رَجُلٌ وَقادَني إلى مَكانٍ هادِئٍ حَيْثُ بادَرَني بِآلحَديثِ قائِلًا : « حَسَنًا يا جُون ، كَيْفَ حالُ أُمِّكَ آلعَزيزةِ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « لَمْ أَرَها مُنْذُ شَهْرَيْنِ . » وَتَظاهَرَ آلرَّجُلُ بِأَنَّهُ يَعْرِفُ أُسْرَتي حَقَّ آلمَعْرِفةِ ، فَأَنِسْتُ إلَيْهِ ، وَأَطْلَعْتُهُ عَلى ما أُلاقي في آلمَدينةِ آلكَبيرةِ ، مِنْ صُعوباتٍ بَعْدَ أَنْ أَنْفَقْتُ كُلَّ ما كُنْتُ أَحْمِلُ مِنْ نُقودٍ . وَاسْتَمَعَ آلرَّجُلُ إلى شَكْواي ، وَصَمَتَ قَليلًا ، ثُمَّ قالَ لي إنَّ آلحُكومةَ مُلْتَزِمةٌ بِأَنْ تَرُدَّ إلَيَّ كُلَّ ما

أَنْفَقْتُ مِنْ نُقودٍ عَلى ٱلْمَسْكَنِ وَٱلْغِذاءِ أَثْناءَ إقامَتي في لَنْدَن ، وَإِنَّهُ عَلَيَّ أَنْ أَطْلُبَ مُقابَلَةَ ٱلقاضي ٱلَّذي أَمَرَني بِٱلمَجيءِ إلى هٰذا ٱلمَكانِ .

شَكَرْتُ ٱلرَّجُلَ ، وَشَرَعْتُ في مُغادَرةِ ٱلمَكانِ ، وَلٰكِنَّهُ أَمْسَكَ بِذِراعي قائِلًا : « يَجِبُ أَنْ تَدْفَعَ لي أَجْرَ هٰذِهِ ٱلاِسْتِشارةِ : أُريدُ جُنَيْهَيْنِ . »

شَعَرْتُ بِٱلخَوْفِ أَوَّلَ ٱلأَمْرِ ، فَقَدْ كُنْتُ لا أَحْمِلُ نُقودًا وَقُلْتُ بِصَوْتٍ تَشوبُهُ ٱلدَّهْشَةُ : « لٰكِنَّكَ يا سَيِّدي ، سَأَلْتَني عَنْ صِحَّةِ والِدَتي . لَقَدْ كُنَّا نَتَبادَلُ حَديثًا وُدِّيًّا فَحَسْبُ ! »

رَدَّ قائِلًا : « وَهَلْ تَظُنُّ أَنَّ لَدَيَّ وَقْتًا أُضَيِّعُهُ في ٱلأَحاديثِ ٱلوُدِّيَّةِ ؟ إِنَّني رَجُلُ أَعْمالٍ . هَيَّا أَخْرِجْ نُقودَكَ ، يا جُون رِد . لابُدَّ مِنْ أَنْ أَحْصُلَ عَلى جُنَيْهَيْنِ . »

شَعَرْتُ بِٱلغَضَبِ ، فَأَجَبْتُهُ عَلى ٱلفَوْرِ : « حَسَنًا ، لَقَدْ أَخْبَرْتَني بِأَنَّ ٱلحُكومَةَ مُلْزَمَةٌ بِدَفْعِ تَكاليفِ إقامَتي هُنا في لَنْدَن . تَعالَ مَعي إِذًا لِنُطْلِعَ ٱلقاضيَ عَلى هٰذا ٱلأَمْرِ . » وَأَمْسَكْتُ بِذِراعِهِ ، وَجَذَبْتُهُ بِشِدَّةٍ نَحْوَ غُرْفَةِ ٱلقاضي .

عِنْدَما أَدْرَكَ ٱلرَّجُلُ أَنَّني سآخُذُهُ إلى ٱلقاضي ، خافَ وَأَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ جُنَيْهَيْنِ ذَهَبِيَّيْنِ وَوَضَعَهُما في يَدي ثُمَّ وَلّى هارِبًا .

خَرَجَ في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ أَحَدُ ٱلكَتَبَةِ مِنْ غُرْفَةِ ٱلقاضي وَأَمَرَني بِٱلدُّخولِ ، فَدَخَلْتُ ٱلحُجْرَةَ ، وَوَقَفْتُ أَمامَ أَقْوى رَجُلٍ في إنْجِلْتِرا : ٱلقاضي جيفْرِيز . لَمْ تَكُنِ ٱلحُجْرَةُ كَبيرَةً جِدًّا . وَكانَ في نِهايَتِها ثَلاثَةُ مَقاعِدَ عاليَةٍ يَجْلِسُ

عَلَيْها ثَلاثَةُ رِجالٍ ، يَتَوَسَّطُهُمْ رَجُلٌ ضَخْمٌ مَهيبٌ ذو نَظَراتٍ حادَّةٍ غاضِبَةٍ ، هُوَ ٱلقاضي جِيفْرِيز .

سَأَلَني : « مَنْ أَنْتَ ؟ » فَأَجَبْتُ : « جُون رِد الَّذي اِسْتَدْعاهُ جيرِيمي ستِكِلز مُنْذُ شَهْرَيْنِ لِلْحُضورِ إلى لَنْدَن . لَقَدْ مَكَثْتُ هُنا مُدَّةَ شَهْرَيْنِ دُونَ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا ، وَأَرْغَبُ آلآنَ في آلعَوْدةِ إلى قَرْيَتي بَعْدَ أَنْ نَفِدَ كُلُّ ما لَدَيَّ مِنْ نُقودٍ . »

سَأَلَني آلقاضي : « أَلَمْ تُسَدِّدْ لَكَ آلحُكومةُ بَعْدُ أُجْرَ آلسَّفَرِ وَتَكاليفَ آلإقامةِ في آلمَدينةِ ؟ »

أَجَبْتُ : « نَعَمْ ، يا سَيِّدي . »

فَنادَى آلقاضي آلمُوَظَّفَ آلمُكَلَّفَ بِخِدْمَتِهِ قائِلًا : « ادْفَعْ لِهٰذا آلرَّجُلِ في آلحالِ ، يا سبانْك ، وَدَعْهُ يَعودُ في آلغَدِ لِمُقابَلَتي . »

عُدْتُ في آلْيَوْمِ آلتّالي إلى آلمَحْكَمةِ . وَسَأَلَني آلقاضي : « هَلْ يُوجَدُ في آلإقْليمِ آلَّذي تَعيشُ فيهِ بَعْضُ آللُّصوصِ آلَّذينَ يُلْحِقُونَ آلأَذَى بِآلنّاسِ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « أَجَلْ ، يا سَيِّدي . »

سَأَلَني : « وَلِماذا لا يَنْهَضُ لوردُ وِيشِيهالس لِمُحارَبَتِهِمْ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « إنَّ آلَ دُون مِنْ أَصْلٍ عَريقٍ ، وَهُمْ يَقْطُنونَ وادِيًا حَصينًا ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّ لوردَ وِيشِيهالس يَخْشاهُمْ . »

سَأَلَني : « ما اسْمُ هٰؤُلاءِ آلقَوْمِ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « آلُ دُون ، يا سَيِّدي . وَعَدَدُهُمْ أَرْبَعونَ تَقْريبًا . »

صاحَ آلقاضي بِدَهْشَةٍ : « أَرْبَعونَ مِنْ آلِ دُون ! أَرْبَعونَ مِنَ آللُّصوصِ ! وَمَتَى آسْتَقَرُّوا هُناكَ ؟ »

قُلْتُ : « مُنْذُ حَوالَى ثَلاثينَ عامًا ، ياسَيِّدي . »

سَأَلَني آلقاضي وَهُوَ يَتَفَرَّسُ فيَّ : « أَلَمْ يَخْطِرْ بِبالِكَ يَوْمًا أَنَّ لوردَ وِيشِيهالس قَدْ يَكونُ صَديقًا لِآلِ دُون ؟ »

دَهِشْتُ دَهْشَةً شَديدةً ، إذْ لَمْ تَخْطِرْ لي هٰذِهِ آلفِكْرَةُ مِنْ قَبْلُ ، مَعَ إنَّهُ مِنَ آلمُحْتَمَلِ أَنْ تَكونَ صَحيحةً .

قالَ آلقاضي : « تُنْبِئُني عَيْناكَ يا جُون رِد بِكُلِّ ما أَوَدُّ أَنْ أَعْرِفَهُ . وَأَرَى أَنَّكَ لَمْ تُفَكِّرْ في مِثْلِ هٰذا آلأَمْرِ مِنْ قَبْلُ . وَآلآنَ ، أَخْبِرْني : هَلْ سَبَقَ لَكَ أَنْ رَأَيْتَ رَجُلًا يُدْعَى تُوم فاجَّس ؟ »

قُلْتُ : « أَجَلْ ، رَأَيْتُهُ كَثيرًا يا سَيِّدي ، فَهُوَ آبْنُ عَمّي . »

قالَ آلقاضي : « إنَّهُ رَجُلٌ طَيِّبٌ . لا رَيْبَ في أَنَّهُ لِصٌّ ، وَلٰكِنَّهُ رَجُلٌ طَيِّبٌ بِآلرَّغْمِ مِنْ ذٰلِكَ ، وَهُوَ يَخْدُمُ آلمَلِكَ بِإخْلاصٍ . وَآلآنَ قُلْ لي : هَلْ هُناكَ أَحاديثُ تَدورُ في إقْليمِكَ عَنْ عِصْيانٍ يُدَبَّرُ ضِدَّ جَلالَةِ آلمَلِكِ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « كَلّا ، يا سَيِّدي . نَحْنُ قَوْمٌ هادِئونَ مُطيعونَ ، وَنَخْدُمُ آلمَلِكَ بِإخلاصٍ كَما يُمْلي عَلَيْنا آلواجِبُ . »

قالَ آلقاضي : « هٰذا حَسَنٌ . إنَّني مُعْجَبٌ بِكَ يا جُون رِد ، فَأَنْتَ رَجُلٌ طَيِّبٌ . تَجَنَّبْ آلَ دُون ، وَتَجَنَّبْ لُوردَ وِيشِيهالس أَيْضًا . وَلا تَذْكُرْ لِأَحَدٍ شَيْئًا مِمَّا جَرى هُنا . وَسَوْفَ أَبْعَثُ بِأَحَدِ رِجالي إلى بَلْدَتِكَ لِيُطْلِعَني عَلى سَيْرِ آلأَحْوالِ فيها . وَآلآنَ ، عُدْ إلى قَرْيَتِكَ ، وَسَوْفَ أَتَذَكَّرُكَ دائِمًا . »

الفَصْلُ ٱلرَّابِعَ عَشَرَ

العَوْدةُ إلى ٱلبَيْتِ

سافَرْتُ بِمُفْرَدي عائِدًا مِنْ نَفْسِ ٱلطَّريقِ ٱلطَّويلِ إلى إقْليمِ سُومِرْسِت . وَلَمْ أُصادِفْ أَخْطارًا في ٱلطَّريقِ ، غَيْرَ أَنَّني دَهِشْتُ لِرُؤْيةِ أُخْتي آني واقِفةً في انْتِظاري عَلى قِمَّةِ ٱلتَّلِّ ٱلواقِعِ قُرْبَ ٱلمَنْزِلِ . وَقالَتْ لي إنَّها كانَتْ تَجيءُ إلى ذٰلِكَ ٱلمَكانِ صَباحَ ٱلسَّبْتِ مِنْ كُلِّ أُسْبوعٍ ، لِأَنَّها كانَتْ مُتَأَكِّدةً مِنْ أَنَّني سَوْفَ أَعودُ يَوْمَ سَبْتٍ .

قَدَّمْتُ لِأُمّي وَلِأُخْتَيَّ ما اشْتَرَيْتُ لَهُنَّ مِنْ هَدايا في لَنْدَن ، فَسُرِرْنَ بِها ، وَسَأَلْنَني أَسْئِلةً كَثيرةً جِدًّا عَنْ تِلْكَ ٱلمَدينةِ ٱلعَظيمةِ . وَما لَبِثْتُ عَواطِفي وَأَفْكاري أَنِ اتَّجَهَتْ إلى لُورْنا في ٱليَوْمِ ٱلتّالي ، فَخَرَجْتُ مُبَكِّرًا في ٱلصَّباحِ ، وَذَهَبْتُ إلى جانِبِ ٱلتَّلِّ ٱلَّذي أَسْتَطيعُ أَنْ أَرى مِنْهُ ٱلحَجَرَ ٱلأَبْيَضَ . وَكانَ ٱلحَجَرُ مُغَطًّى بِقِطْعةٍ مِنَ ٱلقُماشِ ٱلأَسْوَدِ !

لَمْ أَعْرِفْ بِٱلطَّبْعِ مَتَى وَضَعَتْ لُورْنا ٱلقُماشَ عَلى ٱلحَجَرِ . غَيْرَ أَنَّني لَمْ أُضَيِّعْ لَحْظةً أُخْرى ، فَتَوَجَّهْتُ مُباشَرةً إلى ٱلشَّلّالِ ، وَتَسَلَّقْتُهُ داخِلًا ٱلوادي . كانَتِ ٱلطُّيورُ تُغَرِّدُ في أَعْشاشِها تَحْتَ شَمْسِ ٱلأَصيلِ ٱلذَّهَبِيَّةِ ، وَكانَتِ ٱلأَشْجارُ تَلْمَعُ في ضَوْءِ ٱلغُروبِ ٱلباهِتِ . وَوَقَفْتُ أَنْتَظِرُ هُناكَ .

أَخيرًا ظَهَرَتْ لُورْنا مِنْ بَعيدٍ ، وَكانَتْ تَبْدو صَغيرةً وَجَميلةً جِدًّا وَهِيَ تَسيرُ بَيْنَ ٱلظِّلالِ ٱلمُتَرامِيةِ . وَجَرَيْتُ نَحْوَها غَيْرَ مُبالٍ بِٱلحُرَّاسِ أَوِ ٱلأَخْطارِ

ٱلكَثيرةِ ٱلمُحْدِقةِ بي . غَيْرَ أَنَّ ٱلخَوْفَ كانَ يَبْدو في عَيْنَيْها .

قُلْتُ في لَهْفةٍ : « لَقَدْ كُنْتِ في حاجةٍ إلَيَّ إذًا ! »

أَجابَتْ : « نَعَمْ ، وَلٰكِنْ كانَ ذٰلِكَ مُنْذُ وَقْتٍ طَويلٍ ، كانَ ذٰلِكَ مُنْذُ شَهْرَيْنِ ، وَٱلآنَ هَيَّا بِنا نَبْتَعِدُ عَنْ هٰذا ٱلمَكانِ ٱلمَكْشوفِ ، وَتَعالَ نَسيرُ بَيْنَ ظِلالِ ٱلأَشْجارِ . » وَقادَتْني لُورْنا إلى مَخْبَئِها ٱلأَمينِ .

بَدَأَتْ حَديثَها بِسُؤالي : « لِماذا تَخَلَّيْتَ عَنّي ؟ لَقَدْ أَعْطَيْتُكَ ٱلإِشارةَ ، وَلٰكِنَّكَ لَمْ تَسْتَجِبْ ، فَلِماذا لَمْ تَأْتِ ؟ لَقَدْ تَرَكْتَني لِلْآخَرينَ لِيَفْعَلوا بي ما يَشاءُونَ . إنَّهُمْ يُحاوِلونَ إجْباري عَلى ٱلزَّواجِ بِكارْقَر ، كَما أَنَّ تشارْلي دُون يَتَطَلَّعُ إلَيَّ ، وَجَدّي يَخْشَى أَنْ يَتَقاتَلَ تشارْلي وَكارْقَر مِنْ أَجْلي . »

لَنْ أُعيدَ عَلَيْكُمْ ما قُلْتُهُ لَها مِنْ وَعودٍ بِأَلّا أَتْرُكَها مَرَّةً أُخْرى . وَقَدَّمْتُ لَها ٱلهَدِيَّةَ ٱلَّتي أَحْضَرْتُها مِنْ لَنْدَن . وَسَرْعانَ ما صَفَحَتْ عَنّي ، وَوَضَعْنا مَعًا خُطَّةً تُراسِلُني بِمُقْتَضاها إذا ما احْتاجَتْ إلَيَّ .

قالَتْ لي : « وَٱلآنَ اذْهَبْ يا جُون ، لِأَنَّ ٱلوَقْتَ قَدْ حانَ لِتَعودَ إلى أُمِّكَ . » وَأَكْمَلَتْ ضاحِكةً : « يُمْكِنُكَ أَنْ تَأْتيَ لِتَراني مَرَّةً أُخْرى بَعْدَ شَهْرَيْنِ . » وَٱنْصَرَفَتْ .

الفَصْلُ ٱلخامِسَ عَشَرَ

الخالُ رِيُوبِن مَرَّةً أُخْرَى

عِنْدَما عُدْتُ مِنْ وادي آلِ دُون ، وَجَدْتُ ٱلرِّجالَ في ٱلمَزْرَعةِ يَسْتَعِدُّونَ لِحَصْدِ ٱلقَمْحِ ، فاشْتَرَكْتُ في ٱلعَمَلِ مَعَهُمْ .

وَبَيْنَما كُنَّا مُنْهَمِكينَ في ٱلحَصادِ ، وَصَلَ ٱلخالُ رِيُوبِن ، مَعَ حَفيدَتِهِ رُوث هَكّاباك وَكانَتْ أُمِّي تَرْغَبُ في أَنْ أَتَزَوَّجَ رُوث ، لِأَنَّها كانَتِ – كَما ذَكَرْتُ مِنْ قَبْلُ – ٱلوَريثَةَ لِكُلِّ أَمْوالِ جَدِّها رِيُوبِن .

كانَ ٱلخالُ رِيُوبِن مَشْغولًا بِمُهِمَّةٍ خاصَّةٍ ، وَكانَ يَخْرُجُ عَلى جَوادِهِ مِنْ أَجْلِها إِلى ٱلتِّلالِ ٱلبَعيدةِ كُلَّ يَوْمٍ . وَكُنَّا نَسْمَعُ أَقاصيصَ غَريبةً عَنْ أَشْخاصٍ تَمَرَّدوا عَلى ٱلمَلِكِ وَيَتَهَيَّأُونَ لِلْقِتالِ ضِدَّهُ . عِنْدَئِذٍ تَذَكَّرْتُ ما قالَهُ لَيَ ٱلقاضي جيفْريز فَلَمْ أَنْطِقْ بِكَلِمةٍ ، غَيْرَ أَنَّني كُنْتُ أَخْشَى ما قَدْ يَحْدُثُ فِيما بَعْدُ .

ذاتَ مَساءٍ ، رَأَيْتُ أُخْتي آني جالِسةً بِمُفْرَدِها عِنْدَ قَبْرِ والِدي . وَكُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّها تَتَطَلَّعُ إِلى زيارةٍ مِنْ تُوم فاجَس . وَأَخَذْتُ أُحَدِّثُها عَنْ تُوم ، وَنَصَحْتُها بِٱلابْتِعادِ عَنْهُ لِأَنَّهُ قاطِعُ طَريقٍ .

انْدَفَعَتْ قائِلةً : « وَمَنْ هُمْ آلُ دُون ؟ أَلَيْسوا قُطّاعَ طُرُقٍ كَذٰلِكَ ؟! وَمَعَ هٰذا فَأَنْتَ تُحِبُّ واحِدةً مِنْهُمْ . »

اعْتَرَتْني دَهْشةٌ شَديدةٌ فَقُلْتُ لَها : « لٰكِنْ كَيْفَ عَرَفْتِ ذٰلِكَ ؟ »

أَجابَتْ : « لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ . وَلٰكِنْ كانَ لَدَيَّ إِحْساسٌ أَنَّكَ وَلُورْنا

مُتَحابَّانِ . أَمَّا ٱلآنَ ، فَقَدْ تَأَكَّدْتُ مِنَ ٱلأَمْرِ . »

عِنْدَئِذٍ أَخْبَرْتُها بِقِصَّةِ حُبِّي لِلُورْنا بِأَكْمَلِها .

لَمْ نَكُنْ نَعْرِفْ ما كانَ يَفْعَلُهُ خالي رِيُوبِن في ٱلتِّلالِ ٱلبَعيدةِ ، وَلٰكِنَّهُ سافَرَ بِمُفْرَدِهِ بَعْدَ عَشَرَةِ أَيَّامٍ تارِكًا رُوث لِلْبَقاءِ مَعَنا فَتْرَةً أُخْرى . وَكانَتْ أُمِّي تُحَدِّثُني كَثيرًا عَنْ رُوث وَكُنْتُ أَخْشَى أَنْ أُطْلِعَ أُمِّي عَلى حُبِّي لِلُورْنا ، لِٱنْتِمائِها إِلى آلِ دُون ٱلَّذينَ قَتَلَ واحِدٌ مِنْهُمْ والِدي .

عِنْدَما قابَلْتُ لُورْنا في ٱلمَرَّةِ ٱلأَخيرةِ ، دَفَعَتْني لِأَنْ أَعِدَها بِأَلّا أَزورَها ثانيةً قَبْلَ مُرورِ شَهْرَيْنِ ، مالَمْ تَبْعَثْ هِيَ في طَلَبي . وَما إِنِ ٱنْقَضَى ٱلشَّهْرانِ ، حَتَّى أَسْرَعْتُ إِلى ٱلصَّخْرةِ أَتَسَلَّقُها . وَبَقيتُ في ٱلوادي إِلى أَنْ حَلَّ ٱلمَساءُ وَظَهَرَ ٱلقَمَرُ في ٱلسَّماءِ ، وَلٰكِنَّ لُورْنا لَمْ تَأْتِ لِلِقائي .

ذَهَبْتُ إِلى ٱلوادي مَرَّةً أُخْرى ، أَحْمِلُ إِلَيْها هَدِيَّةً مِنَ ٱلسَّمَكِ وَٱلبَيْضِ . وَوَضَعْتُ ٱلهَدِيَّةَ في حُفْرةٍ صَغيرةٍ تَكْسوها ٱلحَشائِشُ قُرْبَ ضِفَّةِ ٱلنَّهْرِ . وَما إِنْ خَبَّأْتُها هُناكَ حَتَّى رَأَيْتُ رَجُلًا قادِمًا نَحْوي مِنْ بَعيدٍ ، فَاخْتَبَأْتُ بِسُرْعةٍ خَلْفَ إِحْدَى ٱلأَشْجارِ .

اقْتَرَبَ ٱلرَّجُلُ ، فَتَبَيَّنْتُ أَنَّهُ كارْقَر دُون . وَكانَ صارِمَ ٱلوَجْهِ ، قاسِيَ ٱلمَلامِحِ . إِذًا فَهٰذا هُوَ ٱلرَّجُلُ ٱلَّذي يُريدُ ٱلزَّواجَ بِلُورْنا !

سارَ كارْقَر إِلى ضِفَّةِ ٱلنَّهْرِ ، وَرَأَى ٱلحُفْرةَ ٱلَّتي تَكْسوها ٱلحَشائِشُ وَما في داخِلِها مِنَ ٱلبَيْضِ وَٱلسَّمَكِ ، فَصاحَ قائِلًا : « ها ! تشارْلي ! إِذًا فَتشارْلي يَتْرُكُ هَداياهُ هُنا لِلُورْنا ! »

أَخْرَجَ آلهَدِيَّةَ مِنَ آلحُفْرةِ ، وَانْطَلَقَ بِها بَعيدًا . وَانْتَظَرْتُ أَنا طَويلًا بَعْدَ ذٰلِكَ ، وَلٰكِنَّ لُورْنا لَمْ تَحْضُرْ . لَقَدْ تَلاشَى كُلُّ ما في آلمَساءِ مِنْ سِحْرٍ وَجَمالٍ !

أَتَيْتُ مَرَّةً أُخْرَى ، وَتَوَجَّهْتُ إلى مُخْبَإِ لُورْنا ، وَوَقَفْتُ مُنْتَظِرًا قُرْبَ آلبابِ ، وَفَجْأَةً سَمِعْتُ طَلْقَةً بُنْدُقِيَّةٍ ، وَاخْتَرَقَتِ آلرَّصاصةُ قُبَّعَتي ، وَأَطارَتْها مِنْ فَوْقِ رَأْسي إلى آلنَّهْرِ حَيْثُ جَرَفَتْها مِياهُ آلشَّلَّالِ . وَأَسْرَعْتُ بِآلاخْتِباءِ خَلْفَ إحْدَى آلصُّخورِ .

خَرَجَ كارْقَر مِنْ مَخْبَئِهِ ، وَجَرَى إلى حافَةِ آلشَّلَّالِ . وَوَقَفَ على بُعْدِ مِتْرٍ واحِدٍ مِنْ مَخْبَئي . وَتَلَفَّتَ حَوْلَهُ ، ثُمَّ صاحَ : « هَلْ صَرَعْتُكَ هٰذِهِ آلمَرَّةَ يا تشارْلي ؟ إنَّها ثالِثُ مَرَّةٍ أُطْلِقُ فِيها آلرَّصاصَ عَلَيْكَ ؟ »

اِبْتَعَدَ وَهُوَ يُقَهْقِهُ . وَضَحِكْتُ أَنا أَيْضًا – إذْ رُبَّما تَحينُ فُرْصَتي يَوْمًا ما لِلإطاحَةِ بِرَأْسِ قاتِلِ والِدي . وَقَفَلْتُ راجِعًا إلى آلمَنْزِلِ .

في ذٰلِكَ آلمَساءِ ، جاءَتْ خادِمَتُنا بيتِّي ، وَأَشارَتْ لي إشاراتٍ غَريبةً . ثُمَّ آقْتَرَبَتْ مِنِّي وَهَمَسَتْ في أُذُني قائِلةً : « لُورْنا دُون ! » وَتَبِعْتُها في سُرْعةٍ إلى خارِجِ آلبَيْتِ . وَما إنِ ابْتَعَدْنا عَنْهُ بِضْعَةَ أَمْتارٍ حَتَّى قالَتْ لي : « أَحْمِلُ إلَيْكَ رِسالةً مِنْ لُورْنا دُون أَتَتْ بِها خادِمَتُها : لَنْ تَسْتَطيعَ لُورْنا أَنْ تُقابِلَكَ في آلمَساءِ ، فَآذْهَبْ إلَيْها في آلصَّباحِ . »

الفَصْلُ السَّادِسَ عَشَرَ

السُّؤالُ آلهامُّ

صَحَوْتُ مُبَكِّرًا في آلَيَوْمِ آلتّالي ، قَبْلَ أَنْ تُشْرِقَ شَمْسُ أُكْتوبَر آلَّتي كَثيرًا ما تَحْجُبُها آلسُّحُبُ في إنْجِلْتِرا . وَتَسَلَّقْتُ آلصَّخْرَةَ عَلى حِينَ كانَ نورُ آلفَجْرِ يَغْمُرُ آلتِّلالَ . وَكانَ آلشِّتاءُ عَلى آلأَبْوابِ ، وَقَدِ آكْتَسَتِ آلأَشْجارُ بِظِلالٍ أُرْجوانِيَّةٍ مُذَهَّبةٍ .

وَقَفْتُ أَخيرًا عَلى قِمَّةِ آلصَّخْرةِ . وَتَطَلَّعْتُ إلى آلوادي ، فَرَأَيْتُ لُورْنا قادِمةً مِنْ بَيْتِها . وما إنْ رَأَتْني حَتَّى جَرَتْ إلَيَّ قائِلةً : « ها قَدْ أَتَيْتَ أَخيرًا ، ياجُون ! لَمْ يَكُنْ في إمْكاني أَنْ أُنْبِئَكَ بِما حَدَثَ حَتَّى تَغْفِرَ لي عَدَمَ حُضوري لِلقائِكَ . لَقَدْ أَجْبَروني عَلى أَنْ أَبْقى حَبيسةَ آلمَنْزِلِ في آلمَساءِ . »

تَبِعْتُها إلى مَخْبَئِها داخِلَ آلصُّخورِ . وَشَعَرْتُ بِأَنَّ أَهَمَّ لَحْظةٍ في حَياتي قَدْ دَنَتْ : لَحْظةِ أَنْ تُصَرِّحَ لي لُورْنا بِحُبِّها . وَأَخَذْتُ أَتَحَدَّثُ عَنِ آلصِّعابِ آلَّتي تُواجِهُها وَآلأَخْطارِ آلمُحْدِقةِ بِها ، وَلٰكِنَّني قاطَعْتُها في رِقَّةٍ قائِلًا : « لَيْسَ هٰذا ما جِئْتُ لِمَعْرِفَتِهِ . »

قالَتْ مُتَظاهِرةً بِأَنَّها لَمْ تُدْرِكْ ما أَرْمي إلَيْهِ : « إذا كُنْتَ تُريدُ أَنْ تَسْأَلَني عَنْ شَيْءٍ خاصٍّ ، فَلِماذا آلتَّرَدُّدُ ؟ »

أَسْرَعْتُ أَسْأَلُها : « لُورْنا ، هَلْ تُحِبِّينَني ؟ »

أجابَتْ : « نَعَمْ ، أُحِبُّكَ ياجُون ، وَلٰكِنْ ما جَدْوى هٰذا آلحُبِّ ؟ إنَّ حَياتي مَحْفوفةٌ بِآلصِّعابِ وَآلمَخاطِرِ الَّتي تَقِفُ حائِلًا دونَ زَواجِنا . إنَّ زَواجَنا مُسْتَحيلٌ ... مُسْتَحيلٌ . »

عِنْدَما عُدْتُ إلى آلمَنْزِلِ ، وَجَدْتُ تُوم فاجَس هُناكَ . كانَ قَدْ حَضَرَ لِيَطْلُبَ إلى أُمّي آلزَّواجَ بِأُخْتي آني . وَعِنْدَئِذٍ أَطْلَعْتُ أُمّي عَلى قِصَّتي مَعَ لُورْنا .

الفَصْلُ آلسّابِعَ عَشَرَ

مَنْزِلُ كارْفَر

فُوجِئْتُ ذاتَ يَوْمٍ بِحُضورِ ستِكِلْز إلى بَيْتِنا ، وَقادَني إلى مَكانٍ في آلحَقْلِ ، وَتَطَلَّعَ حَوْلَهُ في حَذَرٍ لِيَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّ لا أَحَدَ بِآلقُرْبِ مِنْهُ ثُمَّ قالَ :

« سَوْفَ أُطْلِعُكَ آلآنَ ياجُون عَلى سَبَبِ هٰذِهِ آلزِّيارةِ آلمُفاجِئةِ ، بِما أَنَّ آلقاضيَ جيفْريز قَدْ سَبَقَ وَأَلْمَحَ إلَيْكَ بِشَيْءٍ عَنِ آلأَمْرِ : هُناكَ رَجُلٌ يُدْعى دُوق مُونْمَوْث يَحْشِدُ رِجالًا لِلْقِتالِ ضِدَّ آلمَلِكِ ، وَلَقَدْ أَرْسَلَني آلقاضي لِجَمْعِ مَعْلوماتٍ بِهٰذا آلشَّأْنِ ، كَما أَنَّهُ مِنَ آلمُتَوَقَّعِ أَنْ يَصْدُرَ إلَيْكَ أَمْرٌ بِآلقِتالِ في صَفِّ آلمَلِكِ . »

ظَلَّتْ لُورْنا لِعِدَّةِ أَيّامٍ تُرْسِلُ لِيَ آلإشارةَ تِلْوَ آلأُخْرى ، ثُمَّ تَوَقَّفَتْ عَنْ ذٰلِكَ . وَتَمَلَّكَني آلخَوْفُ وَآلقَلَقُ ، وَكانَ خَوْفي وَقَلَقي يَتَزايَدانِ كُلَّ يَوْمٍ . وَذَهَبْتُ إلى آلوادي ثَلاثَ مَرّاتٍ ، وَظَلَلْتُ أَتَرَقَّبُ حُضورها دونَ جَدْوى .

وَتَوَغَّلْتُ ذاتَ يَوْمٍ داخِلَ آلوادي ، سائِرًا بِمُحاذاةِ آلنَّهْرِ ، إلى أَنْ أَتَيْتُ إلى مَنْزِلٍ حَجَريٍّ صَغيرٍ . كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ ذٰلِكَ هُوَ مَنْزِلُ كارْفَر دُونَ . وَتَوَقَّفْتُ عِنْدَ بابِ آلمَنْزِلِ ، وَأَنْصَتُّ جَيِّدًا ، فَلَمْ أَسْمَعْ صَوْتَ أَحَدٍ بِآلدّاخِلِ . ثُمَّ دُرْتُ حَوْلَ آلمَنْزِلِ ، وَتَفَحَّصْتُ آلأَبْوابَ وَآلنَّوافِذَ بِدِقَّةٍ . وَكانَ مِنْ حُسْنِ آلحَظِّ أَنْ فَعَلْتُ ذٰلِكَ – لِسَبَبٍ سَوْفَ أَذْكُرُهُ فيما بَعْدُ .

وَعَزَمْتُ عَلى أَنْ أَتَوَغَّلَ في آلوادي مَرَّةً أُخْرى بادِئًا مِنْ أَوَّلِهِ ، لِأَعْرِفَ كُلَّ شَيْءٍ عَنْ حَبيبَتي لُورْنا .

الفَصْلُ ٱلثَّامِنَ عَشَرَ

عَبْرَ بَوَّابةِ آلِ دُون

دُرْتُ حَوْلَ ٱلتِّلالِ ٱلواقِعةِ في ٱلجَنوبِ ، لِأَتَمكَّنَ مِنْ دُخولِ وادي آلِ دُون عَبْرَ بَوَّابَتِهِ . كانَتِ ٱلمَسيرةُ طَويلةً ، وَأَوْشَكَ ٱلظَّلامُ عَلى ٱلهُبوطِ عِنْدَما كُنْتُ أَقْتَرِبُ مِنَ ٱلبَوَّابَةِ . وَما إِنْ بَلَغْتُها ، وَوَقَفْتُ مُتَطَلِّعًا إِلَيْها حَتَّى بَزَغَ ٱلقَمَرُ وَغَمَرَ بِضَوْئِهِ ٱلمَكانَ . وَخَطَوْتُ بِسُرْعةٍ إِلى ٱلخَلْفِ ، لِأَتَوارى في دائِرةِ ٱلظِّلِّ .

رَأَيْتُ شَجَرةً ضَخْمةً مُعَلَّقةً فَوْقَ ٱلبَوَّابةِ ، يَسْهُلُ إِسْقاطُها عَلى رَأْسِ أَيِّ مُقْتَحِمٍ يُحاوِلُ اجْتِيازَ ٱلبَوَّابةِ إِلى ٱلدَّاخِلِ . وَكانَ في ٱلبَوَّابةِ ثَلاثةُ مَداخِلَ لا يَعْلَمُ سِوى آلِ دُون أَيًّا مِنْها ٱلمَدْخَلَ ٱلصَّحيحَ . وَكانوا يُغَيِّرونَ هٰذا ٱلمَدْخَلَ بَيْنَ ٱلحِينِ وَٱلآخَرِ حَتَّى لا يَعْلَمَ أَعْداؤُهُمْ أَيَّ مَدْخَلٍ يَسْلُكونَ . وَمِلْتُ إِلى ٱلظَّنِّ أَنَّ ٱلمَدْخَلَ ٱلأَوْسَطَ هُوَ ٱلمَدْخَلُ ٱلصَّحيحُ في وَقْتِ ٱلسِّلْمِ فَسَلَكْتُهُ . وَاكْتَنَفَني ظَلامٌ دامِسٌ . وَسَقَطْتُ فَوْقَ شَيْءٍ صُلْبٍ طَويلٍ ، وَتَحَسَّسْتُ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ فَتَبَيَّنْتُ أَنَّهُ مِدْفَعٌ ضَخْمٌ ، فَأَيْقَنْتُ أَنَّني أَسيرُ في ٱلطَّريقِ ٱلصَّحيحِ .

عِنْدَما بَلَغْتُ ٱلمُنْعَطَفَ ٱلتّالِيَ مِنَ ٱلطَّريقِ ، أَبْصَرْتُ ٱثْنَيْنِ مِنْ آلِ دُون يَحْرُسانِ ٱلمَكانَ وَبِيَدِ كُلٍّ مِنْهُما بُنْدُقِيَّةٌ . وَكانَ ثَمَّةَ مِصْباحٌ عَلى ٱلأَرْضِ ، وَكانا مُنْهَمِكَيْنِ في لُعْبةٍ مِنْ أَلْعابِ ٱلحَظِّ . وَكانَ تشارْلي دُون هُوَ أَحَدَ ٱلرَّجُلَيْنِ ، أَمَّا ٱلثّاني فَٱسْمُهُ فيليبس – وَلَقَدْ عَرَفْتُ ذٰلِكَ عِنْدَما سَمِعْتُ كُلًّا مِنْهُما يُنادي ٱلآخَرَ بِاسْمِهِ .

وَسَرْعانَ ما دَخَلا في شِجارٍ عَلى ٱللَّعِبِ . وَقَذَفَ تشارْلي بِكُوبِهِ في وَجْهِ فيليبس ، فَسَقَطَ ٱلكُوبُ فَوْقَ ٱلمِصْباحِ . وهُنا صاحَ فيليبس قائِلًا : « لَقَدْ كُسِرَ ٱلمِصْباحُ ! اذْهَبْ وَأَحْضِرْ مِصْباحًا مِنْ مَنْزِلِ كارْڤَر . »

نَهَضَ تشارْلي وَهُوَ يَشْدو بِأُغْنِيَّةٍ قَصيرةٍ غَريبةٍ . وَمَرَّ بِٱلقُرْبِ مِنِّي فَلامَسَ مِعْطَفُهُ يَدي وَتَبِعْتُهُ وَهُوَ يَنْعَطِفُ ذاتَ ٱليَمينِ وَذاتَ ٱلشِّمالِ ، إِلى أَنْ خَرَجْتُ في نِهايةِ ٱلأَمْرِ إِلى أَرْضٍ مَكْشوفةٍ ، وَرَأَيْتُ ٱلسَّماءَ ٱلصّافيةَ يَتَوَسَّطُها ٱلبَدْرُ ٱلمُنيرُ ، كَما رَأَيْتُ أَمامي مَنازِلَ آلِ دُون كُلَّها .

واصَلَ تشارْلي ٱلسَّيْرَ ، وَأَنا أَتْبَعُهُ بَيْنَ ٱلظِّلالِ . وَمَرَرْتُ بِمَنْزِلِ سِيْر إِنْسُور . وَتَوَقَّفَ تشارْلي عِنْدَ مَنْزِلِ كارْڤَر . وَفُتِحَ ٱلبابُ ، وَأَطَلَّ مِنْهُ كارْڤَر قائِلًا : « ماذا تُريدُ في هٰذِهِ ٱلسّاعةِ مِنَ ٱللَّيْلِ ؟ » فَأَجابَ تشارْلي : « أُريدُ مِصْباحًا آخَرَ غَيْرَ ٱلَّذي ٱنْكَسَرَ . »

أَمَّا أَنا فَقَدْ واصَلْتُ سَيْري إِلى أَنْ بَلَغْتُ مَنْزِلَ لُورْنا دُون ، وَكانَ مَنْزِلًا مِنْ طابَقٍ واحِدٍ . وَلَمْ أَجْرُؤْ عَلى ٱلمُناداةِ بِصَوْتٍ عالٍ خَشْيَةَ أَنْ أَجْذِبَ ٱنْتِباهَ ٱلحارِسِ ٱلَّذي كانَ يَقِفُ عَلى صَخْرةٍ عالِيةٍ ، كاشِفًا مِنْها ٱلوادِيَ بِرُمَّتِهِ . وَمالَ بِثَ هٰذا ٱلحارِسُ أَنِ اتَّجَهَ نَحْوي مُتَسائِلًا : « مَنْ أَنْتَ ؟ أَجِبْني ! واحِد – ٱثْنان – ثَلاثة ، سَوْفَ أُطْلِقُ ٱلرَّصاصَ . »

كانَتْ بُنْدُقِيَّتُهُ مُصَوَّبةً إِلَيَّ . وَشَرَعْتُ أُغَنّي تِلْكَ ٱلأُغْنِيَّةَ ٱلقَصيرةَ ٱلغَريبةَ ٱلَّتي كانَ تشارْلي يُغَنِّيها مُنْذُ لَحَظاتٍ ... وَلَمْ أَدْرِ لِمَ فَعَلْتُ ذٰلِكَ !! وَلٰكِنْ ما إِنْ سَمِعَ ٱلرَّجُلُ ٱلأُغْنِيَّةَ حَتَّى بادَرَني قائِلًا : « كُلُّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ . »

ثُمَّ سارَ عائِدًا إلى مَوْقِعِهِ عَلى آلصَّخْرةِ . وَقَدْ عَرَفْتُ بَعدئِذٍ أَنَّ هٰذِهِ آلأُغْنِيَّةَ هِيَ أُغْنِيَّةُ كارْڤَر دُون آلسرِّيَّةُ آلَّتي كانَ آلحُرَّاسُ يَعْرِفونَهُ بِها ، وَهٰكَذا ظَنَّ آلحارِسُ أَنَّني كارْڤَر دُون .

فَتَحَتْ لُورْنا آلنَّافِذةَ .

بَعْدَ أَنْ تَبادَلْنا آلتَّحِيَّةَ ، أَخْبَرْتُني بِما حَدَثَ ، وَبِآلسَّبَبِ آلَّذي مِنْ أَجْلِهِ كَفَّتْ عَنْ إرْسالِ آلإشاراتِ إلَيَّ فَقالَتْ : « إنَّ جَدِّي سِيْر إنْسُور ، مَريضٌ جِدًّا ، وَأَخْشى أَنْ تَكونَ حَياتُهُ قَدِ اقْتَرَبَتْ مِنْ نِهايَتِها ! إنَّ آلمُسْتَشارَ وَكارْڤَر هُما سَيِّدا آلوادي ، وَأَنا لا أَجْرُؤُ عَلى مُغادَرةِ آلبَيْتِ . وَهُما لا يَسْمَحانِ ،

حَتّى لِخادِمَتي جُويني ، بِآلخُروجِ مِنْهُ . »

قُلْتُ عَلى آلفَوْرِ : « وَلٰكِنْ هَبي أَنَّ خَطَرًا ما قَدْ أَحْدَقَ بِكِ ، فَكَيْفَ أَعْرِفُ ذٰلِكَ ؟ يَجِبُ أَنْ تُعْطِيني إشارةً . »

فَكَّرَتْ لُورْنا بُرْهةً ، ثُمَّ قالَتْ : « هَلْ تَرى آلشَّجَرةَ آلعالِيةَ آلَّتي بَنَتْ فيها آلطُّيورُ سَبْعةَ أَعْشاشٍ ؟ يُمْكِنُكَ أَنْ تَراها بِوُضوحٍ وَأَنْتَ خارِجَ آلوادي . وَتَسْتَطيعُ جُويني أَنْ تَتَسَلَّقَ هٰذِهِ آلشَّجَرةَ ، وَلَسَوْفَ أَدَعُها تُزيلُ واحِدًا مِنْ هٰذِهِ آلأَعْشاشِ إذا ما تَعَرَّضْتُ لِلْخَطَرِ ؛ فَإذا رَأَيْتَ عَلى آلشَّجَرةِ سِتَّةَ أَعْشاشٍ فَقَطْ ، فَاعْلَمْ أَنَّني في خَطَرٍ ، أَمَّا إذا رَأَيْتَ خَمْسةً فَحَسْبُ فَاعْلَمْ أَنَّني قَدْ لَقِيتُ مَصْرَعي عَلى يَدِ كارْڤَر دُون . »

وَافْتَرَقْنا بَعْدَ وَداعٍ حارٍّ ، وَأَخَذْتُ طَريقي إلى آلمَنْزِلِ .

الفَصْلُ التَّاسِعَ عَشَرَ

مُؤَامرةٌ لِلاغْتِيالِ

كانَ جِيرِيمي ستِكِلْز ما زالَ مُقيمًا مَعَنا . وَكانَ مَسْلَكُهُ يَتَّسِمُ بِالْغَرابةِ . فَقَدْ كانَ يَخْرُجُ كُلَّ صَباحٍ ، وَيَعودُ في ساعةٍ مُتَأَخِّرةٍ مِنَ اللَّيْلِ ، دونَ أَنْ يَعْرِفَ أَحَدٌ مِنَّا شَيْئًا عَمَّا كانَ يَفْعَلُهُ .

حَضَرَ تُوم فاجَّس إلى مَنْزِلِنا ذاتَ يَوْمٍ ، وَتَحَدَّثَ مَعَ أُخْتي آني . وَخَرَجْتُ مِنَ الْبَيْتِ بِمُفْرَدي يَوْمَئِذٍ ، وَأَنا أُفَكِّرُ في حُبِّي لِلُورْنا ، وَفي الْحُبِّ الَّذي يَرْبُطُ بَيْنَ تُوم وَآني ؛ كَيْفَ أَنَّ حُبَّهُما يَسيرُ في سُهولةٍ وَيُسْرٍ ، عَلى حِينِ يَتَعَثَّرُ حُبُّنا . وَذَهَبْتُ إلى الغابةِ الصَّغيرةِ الْقَريبةِ مِنَ الْمَنْزِلِ ، وَاقْتَطَعْتُ بِضْعَةَ عيدانٍ مِنَ الْخَشَبِ لِتُسْتَخْدَمَ وَقودًا ، ثُمَّ اتَّجَهْتُ إلى مَجْموعةٍ مِنَ الشُّجَيْراتِ كانَتْ تَنْمو عَلى ضِفَّةِ نُهَيْرٍ قَريبٍ مِنَ الغابةِ ، لِأَسْتَكْمِلَ قَطْعَ الْعيدانِ اللَّازِمةِ .

بَيْنَما كُنْتُ مُنْشَغِلًا في ذٰلِكَ ، رَأَيْتُ ثَلاثةَ رِجالٍ قادِمينَ مِنَ الضِّفَّةِ الْمواجِهةِ . كانوا يَسيرونَ في صَمْتٍ وَهُدوءٍ ، كَأَنَّهُمْ يَقْتَفونَ أَثَرَ عَدُوٍّ لَهُمْ ... وَكانَ هٰؤُلاءِ الرِّجالُ مِنْ آلِ دُون !

اخْتَبَأْتُ بَيْنَ الْحَشائِشِ . وَتَوَقَّفَ الرِّجالُ ، وَتَطَلَّعَ أَحَدُهُمْ إلى الشُّجَيْراتِ قائِلًا : « بَعْضُهُمْ كانَ يَقْطَعُ عيدانَ الشَّجَرِ . » وَكانَ الْمُتَكَلِّمُ هُوَ كارْفَر دُون وَإلى جانِبِهِ وَقَفَ تشارْلي دُون وَكانَ يُرافِقُهُما لُورد وِيشِيهالس .

قالَ تشارْلي : « لا أَحَدَ هُنا الآنَ .. يُمْكِنُ أَنْ نَخْتَبِئَ في هٰذا الْمَكانِ ، فَهُوَ

قَريبٌ مِنَ الطَّريقِ الَّذي يَسْلُكُهُ جِيرِيمي ستِكِلْز عَصْرَ كُلِّ يَوْمٍ . » وَأَضافَ لُورد وِيشِيهالس : « سَنَنْتَظِرُ هُنا لِكَيْ نَراهُ وَهُوَ يَمُرُّ عَلى الطَّريقِ ... وَلَسَوْفَ تَكونُ رِحْلَتُهُ هٰذِهِ آخِرَ رِحْلةٍ يَقومُ بِها في حَياتِهِ . »

لَقَدْ أَتَوْا لِقَتْلِ جِيرِيمي ستِكِلْز ! يَجِبُ أَنْ أُسْرِعَ إذًا لِتَحْذيرِهِ وَإنْقاذِ حَياتِهِ . وَتَسَلَّلْتُ في هُدوءٍ إلى خارِجِ الغابةِ ، ثُمَّ شَرَعْتُ في الْجَرْيِ .

كُنْتُ أَعْرِفُ الْمَكانَ الَّذي يَذْهَبُ إلَيْهِ جِيرِيمي عَصْرَ كُلِّ يَوْمٍ . وَعَدَوْتُ بِأَقْصى ما أَسْتَطيعُ مِنْ سُرْعةٍ ، وَالْخَوْفُ يَتَمَلَّكُني مِنْ أَنْ أَسْمَعَ في أَيَّةِ لَحْظةٍ صَدى طَلَقاتِ رَصاصٍ تُنْبِئُني بِأَنَّ جِيرِيمي قَدْ لَقِيَ مَصْرَعَهُ . وَوَصَلْتُ أَخيرًا إلى التَّلِّ الَّذي أَسْتَطيعُ أَنْ أَرْصُدَ مِنْهُ وادِيَ آلِ دُون . وَفَجْأَةً شَعَرْتُ بِفُوَّهةِ بُنْدُقِيَّةٍ تَضْغَطُ عَلى جَنْبي .

الْتَفَتُّ وَرائي فَرَأَيْتُ جِيرِيمي ، وَصاحَ عِنْدَ رُؤْيَتي : « آهٍ ! أَهُوَ أَنْتَ !! » ثُمَّ أَنْزَلَ بُنْدُقِيَّتَهُ مُتسائِلًا : « ما الَّذي جاءَ بِكَ الآنَ إلى هُنا ؟ »

أَجَبْتُ : « جِئْتُ لِكَيْ أُنْقِذَ حَياتَكَ . هُناكَ ثَلاثةُ رِجالٍ مِنْ آلِ دُون يَنْتَظِرونَ قُرْبَ الغابةِ . إنَّهُمْ يَتَرَبَّصونَ لِقَتْلِكَ ! »

قالَ جِيرِيمي : « دَعْهُمْ يَنْتَظِرونَ ، فَلَنْ أَسْتَطيعَ الآنَ إحْضارَ جُنودي لِلْقَبْضِ عَلَيْهِمْ ، كَما لَنْ نَقْوى – أَنا وَأَنْتَ – بِمُفْرَدِنا عَلى مُواجَهَتِهِمْ . دَعْهُمْ إذًا يَنْتَظِرونَ . وَلٰكِنْ هٰذا يَعْني أَنَّنا سَوْفَ نُضْطَرُّ لِمُهاجَمةِ الوادي ، وَمُحارَبةِ آلِ دُون في عُقْرِ دارِهِمْ ، أَسْرَعَ مِمَّا كُنْتُ أَتَصَوَّرُ . »

الفَصْلُ العِشْرونَ

خُطَّةُ المَعْرَكةِ

في اليَوْمِ التَّالي ، قادَني جيرِيمي إلى خارِجِ البَيْتِ ، وَأَخْبَرَني بِسَبَبِ قُدومِهِ إلَيْنا ، وَبِالمُهِمَّةِ الَّتي عُهِدَ بِها إلَيْهِ في المِنْطَقةِ .

كانَ هُناكَ فَريقٌ مِنَ النَّاسِ غاضِبٌ عَلى المَلِكِ ، وَيَتَأَلَّفُ في غالِبِيَّتِهِ مِنَ الحَمْقى وَصِغارِ السِّنِّ . غَيْرَ أَنَّ بَعْضَ اللُّوْرْداتِ الكِبارِ كانوا يَتَوَلَّونَ قِيادَةَ هٰذا الفَريقِ ، يُشارِكُهُمْ في ذٰلِكَ آلُ دُون وَلُورْد وِيشِيهالس . وَلَقَدْ أُرْسِلَ جيرِيمي سِتِكِلْز إلى الإقْليمِ لِمَعْرِفةِ عَدَدِ وَأَسْماءِ هٰؤُلاءِ النَّاسِ الَّذينَ يَتَهَيَّأونَ لِلْقِتالِ ضِدَّ المَلِكِ . كَما أُمِرَ بِوَضْعِ خُطَّةٍ تُمَكِّنُ جُنودَ المَلِكِ مِنِ اقْتِحامِ وادي آلِ دُون وَقَتْلِهِمْ جَميعًا ، أَوْ طَرْدِهِمْ خارِجَ الوادي عَلى الأَقَلِّ .

عِنْدَئِذٍ صِحْتُ في اسْتِنْكارٍ ، وَأَنا أُفَكِّرُ في لُورْنا : « تَقْتُلونَ آلَ دُون جَميعًا ! هٰذا شَيْءٌ فَظيعٌ ! » فَقالَ جيرِيمي : « أَلَيْسَ ذٰلِكَ أَفْضَلَ مِنْ تَرْكِهِمْ يَسْرِقونَ أَبْقارَكُمْ وَيَسْلُبونَ نُقودَكُمْ ؟ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّكَ سَتُسَرُّ بِأَنْ يُقْتَلَ آلُ دُون جَميعًا ، وَلٰكِنَّني أَراكَ مُبْتَئِسًا لِذٰلِكَ !! »

أَجَبْتُ عَلى الفَوْرِ : « لَنْ أَتَدَخَّلَ في هٰذا الأَمْرِ ، وَلَنْ أُعاوِنَ في ذٰلِكَ ، وَلَنْ أُقاتِلَ في صَفِّكُمْ . »

صاحَ جيرِيمي قائِلًا : « أَ تَرْفُضُ مُحارَبَةَ العِصابَةِ الَّتي قَتَلَتْ أَباكَ ؟ إنَّ

آلخالَ رِيوبِن في صَفِّنا ، وَقَدْ وَعَدَ بِأَنْ يَقودَ جُنودَنا في اقْتِحامِ وادي آلِ دُون . »

غَيْرَ أَنَّ خَوْفي عَلى لُورْنا كانَ شَديدًا . كُنْتُ أَخْشى ما قَدْ يَحْدُثُ لَها إذا ما وَقَعَتْ في قَبْضَةِ الجُنودِ .

الفَصْلُ آلحاديَ وَآلعِشْرونَ

وَفاةُ سِيْر إنْسُور

في مُنْتَصَفِ شَهْرِ ديسَمْبِر اشْتَدَّتْ بُرودةُ آلجَوِّ ، وَتَساقَطَ آلثَّلْجُ بِغَزارةٍ . وَخَرَجْتُ لِأَنْظُرَ إلى أَعْشاشِ آلطَّيْرِ آلَّتي جَعَلَتْها لُورْنا إشارةً لي . وَتَطَلَّعْتُ إلى تِلْكَ آلأَعْشاشِ ، وَدَقَّقْتُ آلنَّظَرَ فيها ، فَلَمْ أَرَ سِوى سِتَّةٍ فَقَطْ ! لَقَدْ أَمَرَتْ لُورْنا خادِمَتَها بِنَزْعِ واحِدٍ مِنْها . إذًا فَهِيَ في خَطَرٍ ، وَفي حاجةٍ إلَيَّ !

كانَ كَلْبي يَقِفُ إلى جانِبي ، فَعَلَّقْتُ في رَقَبَتِهِ رِسالةً قَصيرةً إلى أُخْتي آني ، وَأَمَرْتُهُ بِآلتَّوَجُّهِ إلى آلمَنْزِلِ . وَسَرْعانَ ما عادَ آلكَلْبُ يَحْمِلُ سَلَّةً مَليئةً بِآلطَّعامِ . وَما هِيَ إلَّا بُرْهةٌ وَجيزةٌ حَتَّى بَدَأَ في آلنُّباحِ . وَتَلَفَّتُّ فَرَأَيْتُ شَخْصًا يَسيرُ فَوْقَ آلثَّلْجِ مُتَّجِهًا ناحِيَتي . وَكانَ آلقادِمُ جُويني ، خادِمةَ لُورْنا .

وَبادَرَتْني قائِلةً في لَهْفةٍ : « تَعالَ مَعي آلآنَ ، فَسِيرُ إنْسُور يُحْتَضَرُ ، وَهُوَ يُريدُ أَنْ يَراكَ . »

سَأَلْتُ بِدَهْشةٍ : « يُريدُ أَنْ يَراني ! »

أَجابَتْ : « أَجَلْ ، يُريدُ أَنْ يَراكَ وَيَتَعَرَّفَ إلَيْكَ ، قَبْلَ أَنْ يَموتَ . »

أَرْسَلْتُ آلكَلْبَ إلى آلبَيْتِ ، وَتَبِعْتُ جُويني .

تَسَلَّلْنا إلى آلوادي عَبْرَ طَريقٍ سِرِّيٍّ تَحْجُبُهُ شُجَيْراتٌ كَثيفةٌ مُلْتَفَّةٌ . وَلَمَّا اقْتَرَبْنا مِنْ مَنْزِلِ آلزَّعيمِ ، مَرَرْنا بِحارِسَيْنِ مِنْ آلِ دُون وَتَطَلَّعَ آلحارِسانِ إلَيَّ

وَلٰكِنْ ما إنْ أَسَرَّتْ جُويني إلَيْهِما بِبِضْعِ كَلِماتٍ حَتَّى سَمَحا لي بِآلمُرورِ . وَأَخيرًا بَلَغْنا مَنْزِلَ سِيْر إنْسُور وَفَتَحْتُ آلبابَ ، وَدَخَلْتُ . كانَتْ لُورْنا في اسْتِقْبالي .

قالَتْ : « لا تَهْتَمَّ بِما قَدْ يَقولُهُ جَدِّي . لا تُجِبْ عَمَّا يَسْأَلُ ، وَلا تَخْشَ مِنْهُ . » وَقادَتْني إلى آلحُجْرةِ آلأُخْرى . وَكانَ سِيْر إنْسُور جالِسًا عَلى كُرْسِيِّهِ ، وَقَدْ أَصابَ جَسَدَهُ آلوَهْنُ آلشَّديدُ ، وَكانَ بَريقُ آلحَياةِ يَلْمَعُ في عَيْنَيْهِ آللَّتَيْنِ ثَبَّتَهُما عَلَيَّ . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ سَأَلَني : « آهٍ ! هَلْ أَنْتَ جُون رِد ؟ »

أَجَبْتُ : « أَجَلْ ، أَنا جُون رِد . أَرْجو أَنْ تَكونَ صِحَّتُكَ في تَحَسُّنٍ يا سَيِّدي . »

صَمَتَ بُرْهةً وَجيزةً ، ثُمَّ سَأَلَني : « هَلْ تَعْرِفُ أَنَّ لُورْنا دُون سَليلةُ واحِدةٍ مِنْ أَنْبَلِ وَأَعْرَقِ آلعائِلاتِ في إنْجِلْتِرا ؟ وَأَنْتَ، أَيُّها آلفَلَّاحُ ، تُريدُ أَنْ تَتَزَوَّجَها ؟! »

رَدَدْتُ في آلحالِ : « لا أَعْرِفُ أَنَّها سَليلةُ عائِلةٍ عَريقةٍ ، وَلٰكِنَّني أَعْرِفُ أَنَّ آلِ رِد فَلَّاحونَ طَيِّبونَ ، مُنْذُ مِئاتِ آلسِّنينِ ، وَقَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ آلُ دُون لُصوصًا وَسَفَّاحينَ . »

قالَ سِيْر إنْسُور : « هَلْ تَعِدُني بِأَلَّا تَرى لُورْنا مَرَّةً أُخْرى ؟ وَأَلَّا تَتَحَدَّثَ مَعَها مُطْلَقًا بَعْدَ آلآنَ ؟ نادِها إذًا . »

خَرَجْتُ وَعُدْتُ بِلُورْنا ، وَدَخَلْنا آلحُجْرةَ مُتَشابِكَي آليَدَيْنِ . وَهُنا صاحَ

آلعَجوزُ وَهُوَ يَنْظُرُ إلَيْنا : « آهٍ ، أيُّها آلأَحْمَقانِ ! »

أَجَبْتُ قائِلًا : « نَحْنُ سُعَداءُ تَمامًا بِهٰذِهِ آلحَماقةِ آلَّتي تَرْبُطُنا مَعًا ، وَسَنَظَلُّ سُعَداءَ بِها عَلى آلدَّوامِ . »

قالَ آلزَّعيمُ : « لِتَدُمْ عَلَيْكُما نِعْمةُ هٰذِهِ آلحَماقةِ حَتَّى آخِرِ آلعُمْرِ ، فَهِيَ أَفْضَلُ شَيْءٍ يُمْكِنُ أَنْ أَتَمَنّاهُ لَكُما . »

أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ ، وَأَخَذَ يَتَحَسَّسُ آلفِراشَ بِيَدَيْهِ كَمَنْ يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ وَدَسَسْتُ يَدي داخِلَ آلفِراشِ لِأُعاوِنَهُ في آلبَحْثِ . وَسَرْعانَ ما وَقَعَتْ يَدي عَلى شَيْءٍ صُلْبٍ مَلْفوفٍ ، فَناوَلْتُهُ إيّاهُ . وَتَفَرَّسَ آلجَدُّ بُرْهةً في ذٰلِكَ آلشَّيْءِ ثُمَّ قَدَّمَهُ لِلُورْنا آلَّتي صاحَتْ بِدَهْشةٍ : « يا إلٰهي هٰذا هُوَ عِقْدي آلزُّجاجِيُّ آلبَديعُ ! لَقَدِ احْتَفَظَ لي بِهِ آلجَدُّ آلعَزيزُ حَتَّى لا يَعْبَثَ بِهِ آلأَطْفالُ ! وَهٰذا أَيْضًا خاتَمي آلقَديمُ آلثَّمينُ ! »

قَدَّمَتْ لِيَ آلعِقْدَ وَآلخاتَمَ قائِلةً : « احْتَفِظْ لي بِآلعِقْدِ ، فَسَيَكونُ في أَمانٍ أَكْثَرَ مَعَكَ . أَمّا آلخاتَمُ فَضَعْهُ في إصْبَعِكَ . »

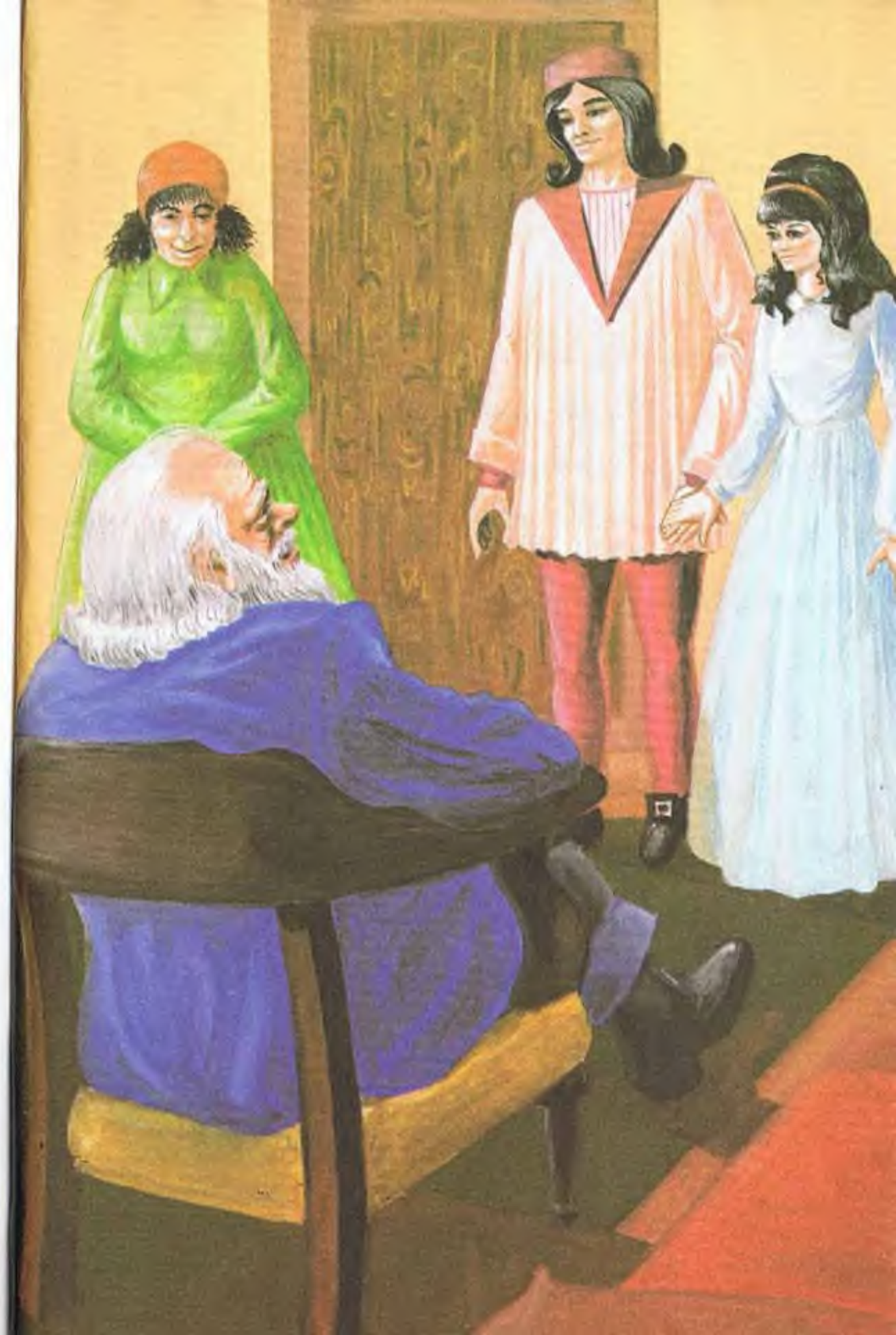

الفَصْلُ ٱلثَّاني وَٱلعِشْرونَ

طَعامٌ لِلْجَوْعى

اشْتَدَّ تَساقُطُ ٱلثَّلْجِ ، وَسَدَّ مَجْرى ٱلنَّهْرِ ، وَمَلأَ ٱلطُّرُقَ ، وَارْتَفَعَ حَتَّى بَلَغَ نَوافِذَ ٱلمَنازِلِ ، فَاضْطُرِرْنا إلى حَفْرِ دُروبٍ لَنا في ٱلثَّلْجِ حَتَّى نَتَمَكَّنَ مِنَ ٱلسَّيْرِ خارِجَ ٱلبُيوتِ . وَكادَتْ مَواشينا تَهْلَكُ مِنْ كُتَلِ ٱلثَّلْجِ ٱلمُتَراصَّةِ في ٱلحُقولِ ، وَكانَ عَلَيْنا أَنْ نُسْرِعَ لإِنْقاذِها .

كانَ ٱلسَّيْرُ عَلى ٱلثَّلْجِ ٱلهَشِّ عَسيرًا جِدًّا ، وَلٰكِنَّ آني – ٱلَّتي كانَتْ مولَعَةً بِقِراءَةِ ٱلكُتُبِ – أَخْبَرَتْني أَنَّ سُكّانَ ٱلبِلادِ ٱلبارِدَةِ يَصْنَعونَ لِأَنْفُسِهِمْ ما يُسَمّى بِقَباقيبِ ٱلثَّلْجِ ، لِيَتَمَكَّنوا مِنَ ٱلسَّيْرِ بِها عَلى ٱلثَّلْجِ ٱلهَشِّ دونَ أَنْ يَغوصوا فيهِ . وَصَنَعْتُ لِنَفْسي قَبْقابَ ثَلْجٍ ، وَوَجَدْتُ بادِئَ ٱلأَمْرِ أَنَّ ٱلسَّيْرَ بِهِ شاقٌّ لِلْغايَةِ . وَلٰكِنْ لَمْ أَلْبَثْ أَنْ تَمَرَّنْتُ عَلى ٱلمَشْيِ بِهِ . ثُمَّ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَجْرِيَ بِهِ فَوْقَ ٱلثَّلْجِ بَعْدَ ذٰلِكَ .

صَعِدْتُ إلى قِمَّةِ ٱلتَّلِّ ٱلمَعْروفِ ، وَنَظَرْتُ إلى وادي آلِ دُون ، فَرَأَيْتُ ٱلثَّلْجَ يُغَطّي كُلَّ شَيْءٍ . عِنْدَئِذٍ أَخَذْتُ أُفَكِّرُ في لُورْنا وَفي أَنَّها قَدْ تَكونُ حَبيسَةَ ٱلدّارِ ، تُقاسي مِنَ ٱلوَحْدَةِ وَٱلبَرْدِ .

وَعَزَمْتُ عَلى زيارَتِها في دارِها ، خاصَّةً إنَّني كُنْتُ في مَأْمَنٍ حِينَئِذٍ مِنْ آلِ دُون ٱلَّذينَ لَنْ يُغادِروا مَنازِلَهُمْ في مِثْلِ ذٰلِكَ ٱلجَوِّ ٱلقارِسِ . وَشَرَعْتُ في ٱخْتِراقِ ٱلثُّلوجِ مُتَّجِهًا إلى بَيْتِها .

بَلَغْتُ بابَها ، وَنادَيْتُ .

تَساءَلَتْ جُويني : « مَنْ بِٱلبابِ ؟ »

أَجَبْتُ : « جُون رِد ! » فَقالَتْ جُويني : « ضَعْ إصْبَعَكَ في ثَقْبِ ٱلبابِ وَأُرِني ٱلخاتَمَ ، وَإذا كُنْتَ أَحَدًا غَيْرَ جُون رِد فَسَوْفَ أَقْطَعُ إصْبَعَكَ . »

ضَحِكْتُ ، وَأَرَيْتُها إصْبَعي ، فَفَتَحَتْ لِيَ ٱلبابَ . وَسَأَلْتُها وَأَنا أَسيرُ إلى ٱلدّاخِلِ : « ما مَعْنى هٰذا يا جُويني ؟ »

أَجابَتْ عَلى ٱلفَوْرِ : « مَعْناهُ أَنَّنا حَبيسَتا ٱلدّارِ ، وَأَنَّ بَطْنَيْنا خاوِيانِ تَمامًا ... نَحْنُ في حاجَةٍ ماسَّةٍ إلى طَعامٍ ، فَٱلجوعُ يَقْرُصُني حَتَّى إنَّني أُريدُ ٱلآنَ أَنْ آكُلَكَ ! »

أَخْرَجْتُ قِطْعَةً كَبيرَةً مِنَ ٱلخُبْزِ وَناوَلْتُها إيَّاها ، فَٱلْتَهَمَتْها مِثْلَ حَيَوانٍ نَهِمٍ .

تَوَجَّهْتُ إلى لُورْنا ، وَكانَتْ مُسْتَلْقِيَةً فَوْقَ مَقْعَدِها مُغْمَضَةَ ٱلعَيْنَيْنِ . وَقَدَّمْتُ لَها خُبْزًا وَماءً ، فَفَتَحَتْ عَيْنَيْها وَبَدَأَتْ تَأْكُلُ . وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ قالَتْ : « لَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُ أَنْ أَراكَ ثانِيَةً كُنْتُ أَتَرَقَّبُ ٱلمَوْتَ في كُلِّ لَحْظَةٍ ، وَكُنْتُ أُرَجِّحُ أَنَّني سَوْفَ أَموتُ دونَ أَنْ تَدْرِيَ بِذٰلِكَ .. لَقَدِ ٱحْتَجَزَنا كارْفَر دُون ، وَأَقْسَمَ أَلّا يَدَعَني أُغادِرُ ٱلمَنْزِلَ إلّا إذا تَزَوَّجْتُهُ . »

كانَ مَعي مَزيدٌ مِنَ ٱلطَّعامِ ، فَقَدَّمْتُهُ لَهُما وَرُحْتُ أَتَحَدَّثُ عَلى حِينَ كانَتْ لُورْنا وَجُويني تَأْكُلانِ . وَقالَتْ لُورْنا بَعْدَ أَنْ فَرَغَتْ مِنْ تَناوُلِ ٱلطَّعامِ :

« تَعالَ إلى آلنّافِذةِ وَشاهِدْهُمْ يُشْعِلونَ آلنّارَ آلكُبْرى . لَقَدْ نَصَّبوا كارْفَر زَعيمًا وَقائِدًا ، وَسَوْفَ يُقيمونَ وَليمةً كَبيرةً تَكْريمًا لَهُ . »

وما إنْ عَلِمْتُ بِنَبَإِ آلاحْتِفالِ آلضَّخْمِ ، حَتّى أَخَذْتُ أُفَكِّرُ في نَقْلِ لُورْنا إلى مَنْزِلي في تِلْكَ آللَّيْلةِ : فَلَنْ تَكونَ مُغادَرةُ آلوادي ، في مِثْلِ هٰذا آلوَقْتِ ، مَحْفوفةً بِآلمَخاطِرِ ، إذْ سَيَكونُ آلْ دُون مَشْغولينَ بِطَعامِهِمْ وَشَرابِهِمْ وَلَهْوِهِمْ عَنْ مُراقَبَتِنا أَوْ رُؤْيَتِنا .

قُلْتُ لِلُورْنا : « سَوْفَ أَذْهَبُ آلآنَ ، ثُمَّ أَعودُ بَعْدَ ساعَتَيْنِ . احْزِمي مَلابِسَكِ كُلَّها ، وَاسْتَعِدّي لِلرَّحيلِ مَعي . سَأَعودُ لِآخُذَكِ إلى مَنْزِلي . »

آلفَصْلُ آلثّالِثُ وَآلعِشْرونَ

لُورْنا في بَيْتي

ذَهَبْتُ إلى آلبَيْتِ بِأَقْصى سُرْعةٍ مُمْكِنةٍ ، وَطَلَبْتُ إلى أُمّي أَنْ تُدَفِّئَ حُجُراتِ آلمَنْزِلِ . وَأَعْطَتْني أُخْتي ليزي مِعْطَفًا صوفِيًّا بَديعًا لِتَرْتَديَهِ لُورْنا . ثُمَّ قَفَلْتُ راجِعًا إلى آلوادي عَبْرَ آلثُّلوجِ آلمُتَراكِمةِ .

أَتَيْتُ إلى مَنْزِلِ لُورْنا وَنادَيْتُ ، وَلٰكِنْ لَمْ أَسْمَعْ جَوابًا ، فَاقْتَحَمْتُ آلبابَ ، وَرَأَيْتُ مَنْظَرًا مُرَوِّعًا .

كانَتْ جُويني كارْفاكْس وَسَطَ آلحُجْرةِ تُمْسِكُ بِساقَيْ رَجُلٍ . وَكانَ هُناكَ رَجُلٌ آخَرُ يُحاوِلُ أَنْ يَنْزِعَ لُورْنا عَنْ كُرْسيِّها . أَمْسَكْتُ بِآلرَّجُلِ آلأَوَّلِ وَكانَ تشارْلي دُون ، وَقَذَفْتُ بِهِ مِنَ آلنّافِذةِ ، ثُمَّ حَمَلْتُ آلثّانيَ خارِجَ آلمَنْزِلِ ، وَكانَ آبْنَ لُورْد وِيشِيهالس ، وَقَذَفْتُ بِهِ وَسْطَ آلثُّلوجِ . وَاصْطَحَبْتُ لُورْنا وَجُويني بِسُرْعةٍ إلى آلخارِجِ وَسِرْنا وَسْطَ آلثُّلوجِ إلى أَنْ وَصَلْنا مَنْزِلي .

خَرَجَتْ أُمّي لِاسْتِقْبالِ لُورْنا وَاحْتَضَنَتْها ، وَقَبَّلَتْها ، ثُمَّ رافَقَتْها إلى آلدّاخِلِ ، حَيْثُ أَجْلَسَتْها عَلى كُرْسِيٍّ وَثيرٍ مُريحٍ . وَأَغْمَضَتْ لُورْنا عَيْنَيْها ، غَيْرَ أَنَّ يَدَها آلصَّغيرةَ آلرَّقيقةَ تَسَلَّلَتْ لِتُمْسِكَ بِيَدي .

الفَصْلُ آلرَّابِعُ وَآلعِشْرونَ

العِقْدُ

بَدَأَ آلثَّلْجُ في آلذَّوَبانِ ، وَأَصْبَحَ آلسَّفَرُ مُمْكِنًا ، فَجاءَ تُوم فاجَّس لِرُؤْيَةِ آني .

أَخْبَرْتُهُ بِقِصَّةِ لُورْنا ، وَكَيْفَ أَنَّني آلْتَقَيْتُ بِسِيْر إِنْسُور وَهُوَ عَلى فِراشِ آلمَوْتِ . ثُمَّ أَرَيْتُهُ آلعِقْدَ قائِلًا : « إِنَّهُ عِقْدٌ زُجاجِيٌّ .. شَيْءٌ شَبيهٌ بِآللُّعْبَةِ . »

فَصاحَ في دَهْشَةٍ : « لُعْبَةٌ ! إِنَّهُ مَصْنوعٌ مِنْ أَغْلى وَأَنْدَرِ أَنْواعِ آلماسِ ، وَثَمَنُهُ يَفوقُ ثَمَنَ مَزْرَعَتِكَ بِأَكْمَلِها . »

دَخَلَتْ لُورْنا آلحُجْرَةَ ، فَتَناوَلَ تُوم فاجَّس آلعِقْدَ قائِلًا لَها : « كَمْ تَأْخُذينَ ثَمَنًا لِهٰذا آلعِقْدِ ؟ أَتَكْفيكِ خَمْسَةُ جُنَيْهاتٍ ؟ »

أَجابَتْ لُورْنا : « إِنَّهُ عِقْدٌ بَديعٌ حَقًّا ، وَلٰكِنَّ هٰذا ثَمَنٌ كَبيرٌ .. إِنَّني لا أَرْغَبُ في بَيْعِهِ ، فَقَدْ وَرِثْتُهُ عَنْ والِدَتي . »

أَضافَ تُوم قائِلًا : « لَوْ أَنَّ هٰذا آلعِقْدَ بيعَ في لَنْدَن لَحَصَلْتِ عَلى مِئَةِ أَلْفِ جُنَيْهٍ ثَمَنًا لَهُ . »

قَدَّمَتْ لُورْنا آلعِقْدَ لِأُمِّي قائِلَةً : « هٰذا يا أُمّاهُ آلعَزيزَةَ هَدِيَّةٌ مُتَواضِعَةٌ مِنّي إِلَيْكِ ؛ إِذْ لا شَيْءَ في آلدُّنْيا يُساوي ما أَسْبَغْتِ عَلَيَّ مِنْ حُبٍّ وَحَنانٍ . »

شَكَرَتْ أُمّي لُورْنا وَاعْتَذَرَتْ لَها في رِقَّةٍ عَنْ قَبولِ آلعِقْدِ ، فَناوَلَتْني لُورْنا إِيّاهُ ، وَطَلَبَتْ أَنْ أَحْتَفِظَ لَها بِهِ .

في آللَّيْلَةِ آلتّالِيَةِ جاءَنا جيرِيمي ستِكِلْز ، وَأَخْبَرَنا أَنَّ ثَلاثَةً مِنْ آلِ دُون قَدْ حاوَلوا قَتْلَهُ ، وَأَنَّ واحِدًا مِنْ جُنودِهِ أُصيبَ .

كُنْتُ أُرَجِّحُ أَنَّ آلَ دُون لَنْ يُهاجِمونا ، في مُحاوَلَةٍ لِاسْتِعادَةِ لُورْنا ما دامَتِ آلأَرْضُ مُغَطّاةً بِمياهِ آلثُّلوجِ آلذّائِبَةِ . وَلٰكِنَّني كُنْتُ مُتَأَكِّدًا مِنْ أَنَّهُمْ سَوْفَ يَأْتونَ ، بِمُجَرَّدِ أَنْ تَجِفَّ آلأَرْضُ . وَأَسِفْتُ لِتَرْكي تُوم فاجَّس يَرْحَلُ ، فَقَدْ كانَ زَميلًا نافِعًا ، وَمُقاتِلًا قَديرًا .

تَحَدَّثْتُ إِلى جيرِيمي في شَأْنِ آلمَعْرَكَةِ آلقادِمَةِ ضِدَّ آلِ دُون ، فَنَصَحَني بِأَنْ أُحْشُدَ أَكْبَرَ عَدَدٍ مُمْكِنٍ مِنَ آلرِّجالِ لِلِاشْتِراكِ في هٰذِهِ آلمَعْرَكَةِ . وَكُنْتُ قَدِ آخْتَزَنْتُ كَمِّيَّةً هائِلَةً مِنَ آلطَّعامِ .

في آليَوْمِ آلتّالي خَرَجْتُ عَلى جَوادي لِاسْتِدْعاءِ جُنودِ ستِكِلْز وَلٰكِنّي لَمْ أَجِدْ إِلّا أَرْبَعَةً مِنْهُمْ فَقَطْ . وَطَلَبْتُ إِلَيْهِمُ آلحُضورَ إِلى آلمَزْرَعَةِ في أَقْصَرِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ ، فَوافَقوا عَلى ذٰلِكَ ، كَما وَعَدوا بِإِحْضارِ رَجُلَيْنِ آخَرَيْنِ مَعَهُمْ مِنَ آلحُرّاسِ آلرّابِضينَ في مَوْضِعٍ قَريبٍ مِنّا .

عُدْتُ بِسُرْعَةٍ إِلى آلمَنْزِلِ . وَكانَ ذٰلِكَ مِنْ حُسْنِ آلحَظِّ ، فَلَقَدْ وَقَعَ في غِيابي حادِثٌ خَطِرٌ : كانَتْ لُورْنا قَدْ خَرَجَتْ إِلى حَديقَةِ آلمَنْزِلِ لِتَسْتَمْتِعَ بِمُشاهَدَةِ آلأَزْهارِ . وَفُوجِئَتْ وَهِيَ تَعودُ إِلى آلمَنْزِلِ ، بِعَيْنَيْنِ تَخْتَلِسانِ آلنَّظَرَ

إلَيْها مِنْ خَلْفِ آلأَشْجارِ – كانَتا عَيْنَي كارْڤَر دُون !

تَسَمَّرَتْ في مَكانِها مِنَ آلرُّعْبِ . وَقَهْقَهَ كارْڤَر ، ثُمَّ رَفَعَ بُنْدُقِيَّتَهُ وَصَوَّبَها إلى قَلْبِها . وَكانَتْ لا تَزالُ غَيْرَ قادِرةٍ عَلى آلتَّحَرُّكِ أَوِ آلنُّطْقِ . لٰكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَفَضَ آلبُنْدُقِيَّةَ ناحِيَةَ آلأَرْضِ ، ثُمَّ أَطْلَقَها . وَتَطايَرَ آلتُّرابُ وَغَمَرَ لُورْنا . وَسَقَطَتْ عَلى آلأَرْضِ باكِيَةً . عِنْدَئِذٍ سارَ كارْڤَر إلى ضِفَّةِ آلنَّهْرِ آلصَّغيرِ آلَّذي يَجْري عِنْدَ نِهايَةِ حَديقَتِنا ، وَصاحَ قائِلًا : « أَنا لَمْ أَقْتُلْكِ هٰذِهِ آلمَرَّةَ لِأَنَّني لَمْ أَشَأْ قَتْلَكِ ، كَما أَنَّني لا أُقْدِمُ أَبَدًا عَلى آلقَتْلِ وَأَنا في سَوْرَةِ آلغَضَبِ . غَيْرَ أَنَّني سَوْفَ أَقْتُلُكِ وَأَقْتُلُ جُون رِد أَيْضًا ، إذا لَمْ تَعودي غَدًا إلى وادي آلِ دُون ، حامِلَةً مَعَكِ كُلَّ ما أَخَذْتِ مِنْ مَنْزِلِكِ هُناكَ . » ثُمَّ آسْتَدارَ وَمَشى بَعيدًا إلى أَنِ اخْتَفى عَنِ آلأَنْظارِ .

حَضَرَ جُنودُ ستِكِلْز آلأَرْبعَةُ ، كَما حَضَرَ آلحارِسانِ . وَجَمَعْنا مَزيدًا مِنَ آلمُؤَنِ ، وَتَهَيَّأْنا لِلْمَعْرَكَةِ .

آلفَصْلُ آلخامِسُ وَآلعِشْرونَ

مَعْرَكَةٌ في فِناءِ آلمَزْرَعَةِ

كُنَّا نَتَوَقَّعُ أَنْ يَهْجُمَ آلُ دُون عَلى آلمَنْزِلِ في تِلْكَ آللَّيْلَةِ . فَأَرْسَلْنا نِساءَ آلبَيْتِ لِلنَّوْمِ مُبَكِّراتٍ عَنْ مَوْعِدِهِنَّ آلمُعْتادِ ، فيما عَدا جُويني وَخادِمَتَنا آلعَجوزَ بيتّي . وَكانَ آلمَطَرُ قَدْ سَقَطَ غَزيرًا في آللَّيْلَةِ آلسّابِقَةِ ، وَغَطَّتْ مِياهُهُ آلأَرْضَ في وادي آلِ دُون – وَلَمْ نَكُنْ نَتَوَقَّعُ أَنْ يَهْجُموا بِأَكْثَرَ مِنْ ثَمانِيَةِ مُقاتِلينَ أَوْ عَشَرَةٍ . كانَ لَدَيْنا في مُواجَهَتِهِمْ ثَمانِيَةُ رِجالٍ مُسَلَّحينَ بِآلبَنادِقِ وَأَرْبَعَةٌ آخَرونَ يَحْمِلونَ آلعِصِيَّ وَآلسَّكاكينَ فَقَطْ .

كانَتْ أُمْنِيَّتي آلكُبْرى أَنْ أَلْتَقِيَ بِكارْڤَر دُون لِأُقاتِلَهُ بِنَفْسي . وَكُنْتُ مِنَ آلضَّخامَةِ وَآلقُوَّةِ بِحَيْثُ أَسْتَطيعُ حَمْلَ أَيِّ رَجُلٍ وَآلإِطاحَةَ بِهِ بَعيدًا . غَيْرَ أَنَّ كارْڤَر كانَ مِثْلي في آلضَّخامَةِ وَآلقُوَّةِ ، وَكانَ مُقاتِلًا عَنيفًا يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَصَدَّي لي ، وَيُديرَ آلمَعْرَكَةَ ضِدّي بِمَهارَةٍ . تَسَلَّقَتْ جُويني إِحْدى آلأَشْجارِ لِرَصْدِ تَحَرُّكاتِ آلِ دُون ، وَمَكَثْتُ أَنا أَنْتَظِرُ . وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ عادَتْ جُويني بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ آلوَقْتِ لِتُخْبِرَني أَنَّ عَشَرَةَ رِجالٍ قَدْ عَبَروا آلنَّهْرَ ، وَأَنَّهُمْ في طَريقِهِمْ إِلَيْنا ، فَبَعَثْتُ بِآلنَّبَإِ إلى جيريمي ستِكِلْز وَرِجالِهِ لِيَكونوا عَلى اسْتِعْدادٍ مَعي لِمُلاقاتِهِمْ .

وَصَلَ آلُ دُون إلى فِناءِ آلمَزْرَعَةِ . وَكانَ جُنودُنا يَكْمُنونَ لَهُمْ في سِتْرٍ مِنْ ظِلالِ آلمَنْزِلِ .

وَمالَ كارْڤَر دُون مُخاطِبًا آثْنَيْنِ مِنْ رِجالِهِ : « اذْهَبا أَنْتُما ، وَأَشْعِلا آلنّارَ في أَكْوامِ آلتِّبْنِ ، حَتّى نَتَمَكَّنَ مِنْ قَتْلِهِمْ عَلى ضَوْءِ آللَّهَبِ . » ثُمَّ قالَ لِلآخَرينَ : « حَذارِ مِنْ أَنْ يُصيبَ أَحَدُكُمْ لُورْنا بِأَذًى ، إِذْ لَنْ أَتَرَدَّدَ حِينَئِذٍ في

قَتْلِهِ . إنَّ لُورْنا في حِمايَتي أنا ، وَسَوْفَ تُصْبِحُ زَوْجَتي عَمَّا قَريبٍ . »

كانَ مِنَ ٱلسَّهْلِ حِينَئِذٍ أَنْ أُطْلِقَ ٱلرَّصاصَ عَلى كارْڤَر ، وَلٰكِنَّ يَدَيَّ لَمْ تَقْويا عَلى ذٰلِكَ ، فَلَمْ يَسْبِقْ لي أَنْ قَتَلْتُ إنْسانًا ، وَكُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ أَكونَ قاتِلًا .

اقْتَرَبَ مِنّي رَجُلانِ مِنْ آلِ دُون يَحْمِلانِ أَغْصانًا مُشْتَعِلَةً لِإضْرامِ ٱلنّارِ في أَكْوامِ ٱلتِّبْنِ . وَلَمْ يُبْصِراني بِسَبَبِ ٱلدُّخانِ ٱلْمُتَصاعِدِ مِنْ هٰذِهِ ٱلأَغْصانِ . وانْقَضَضْتُ بِسُرْعَةٍ خاطِفَةٍ عَلى أَحَدِ ٱلرَّجُلَيْنِ ، وَكَسَرْتُ ذِراعَهُ ، فَسَقَطَ ٱلْغُصْنُ مِنْ يَدِهِ ، وَأَخَذَ يَصْرُخُ مِنَ ٱلأَلَمِ . وَتَوَقَّفَ ٱلثّاني ، فَالْتَقَطْتُ ٱلْغُصْنَ ٱلْمُشْتَعِلَ وَقَذَفْتُ بِهِ في وَجْهِهِ . وَقَفَزَ ٱلرَّجُلُ نَحْوي فَأَمْسَكْتُ بِهِ في عُنْفٍ شَديدٍ وَحَطَّمْتُ عَظْمَةَ كَتِفِهِ ، وَأَلْقَيْتُ بِهِ فَوْقَ زَميلِهِ .

وَهُنا أَطْلَقَ جُنودُنا ٱلنّارَ ، فَأَحْدَثَ ذٰلِكَ دَوِيًّا شَديدًا ، وَسَقَطَ اثْنانِ مِنْ آلِ دُون ، وَتَوَقَّفَ زَحْفُ ٱلآخَرينَ . عِنْدَئِذٍ تَقَدَّمْتُ عَبْرَ فِناءِ ٱلْمَزْرَعَةِ نَحْوَ كارْڤَر وَقَبَضْتُ عَلى لِحْيَتِهِ قائِلًا :

« أَتَدْعو نَفْسَكَ رَجُلًا ؟ » وَحاوَلَ أَنْ يُصَوِّبَ بُنْدُقِيَّتَهُ إلى صَدْري ، غَيْرَ أَنَّني هَوَيْتُ بِضَرْبَةٍ خاطِفَةٍ عَلى يَدِهِ فَسَقَطَ سِلاحُهُ عَلى ٱلأَرْضِ ، ثُمَّ ضَغَطْتُ عَلى ذِراعِهِ بِشِدَّةٍ ، وَأَنا أَصيحُ في وَجْهِهِ : « وَٱلآنَ خُذْ حَذَرَكَ مِنّي يا كارْڤَر ! إذا ظَنَنْتُ أَنَّني أَضْعَفُ مِنْكَ ، فَأَنْتَ ساذَجٌ ، بَلْ وَأَبْلَهُ . قَدْ لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُدانِيَكَ في ٱلْخِداعِ وَٱلْمَكْرِ ، وَلٰكِنَّني لا أَقِلُّ عَنْكَ قُوَّةً . وَلَسَوْفَ أُثْبِتُ لَكَ ذٰلِكَ بِتَمْريغِكَ ٱلآنَ في ٱلتُّرابِ ! »

دَفَعْتُهُ بِعُنْفٍ إلى ٱلْوَراءِ ، فَوَقَعَ عَلى ظَهْرِهِ . وَما إنْ رَأى سائِرُ ٱلرِّجالِ قائِدَهُمْ طَريحَ ٱلأَرْضِ ، حَتّى لاذوا بِٱلْفِرارِ تارِكينَ لَنا خُيولَهُمْ وَجُثَّتَي ٱلْقَتيلَيْنِ ٱللَّذَيْنِ صَرَعَهُما جُنودُنا .

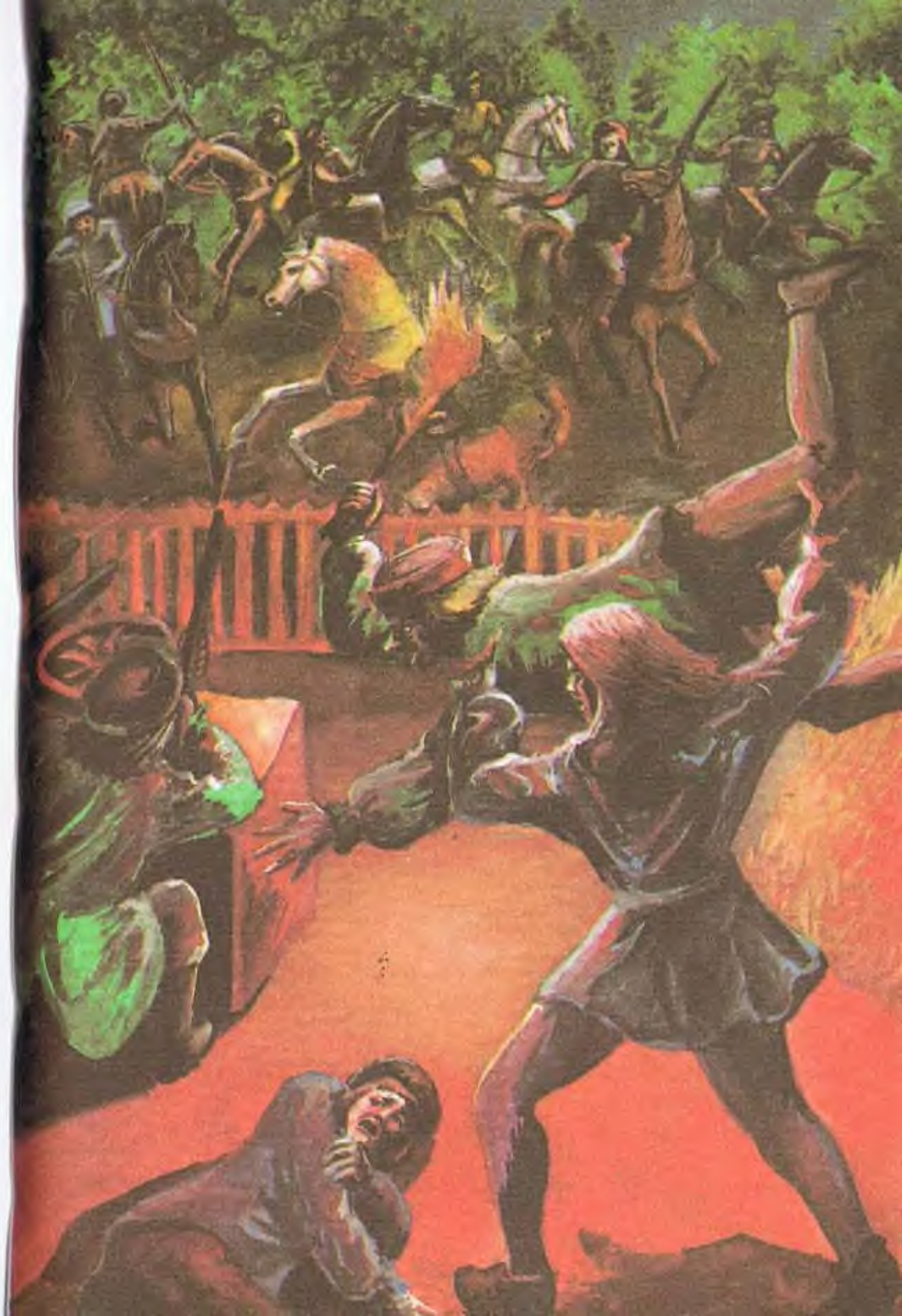

الفَصْلُ السَّادِسُ وَالعِشْرونَ

زيارةٌ مِنَ المُسْتَشارِ

عَقِبَ تِلْكَ المَعْرَكةِ بِوَقْتٍ قَصيرٍ ، لَحِقَ بِنا مَزيدٌ مِنَ الجُنودِ ، فَلَمْ نَعُدْ نَخْشى هُجومًا آخَرَ قَدْ يَشُنُّهُ آلُ دُون .

ذاتَ مَساءٍ ، بَعْدَ عَوْدَتي مِنْ تَفَقُّدِ المَزْرَعةِ عَلى ظَهْرِ الجَوادِ ، أَقْبَلَتْ ليزي لِمُلاقاتي عِنْدَ بابِ المَنْزِلِ قائِلةً : « لا تَدْخُلْ حُجْرةَ أُمّي الآنَ ، فَعِنْدي ما سَوْفَ أَقولُهُ لَكَ . »

سَأَلْتُها : « ما الأَمْرُ ؟ هَلْ أُصابَ لُورْنا مَكْروهٌ ؟ » فَأَجابَتْ : « كَلَّا ، غَيْرَ أَنَّهُ جاءَنا ضَيْفٌ مَهيبٌ ذو شَعْرٍ أَشْيَبَ وَلِحْيةٍ طَويلةٍ بَيْضاءَ ، وَأَظُنُّ أَنَّهُ مِنْ آلِ دُون . »

قُلْتُ : « إِنَّهُ المُسْتَشارُ ! »

ذَهَبْتُ وَعُدْتُ بِلُورْنا ، وَدَخَلْنا مَعًا حُجْرَةَ أُمّي ، وَكانَتْ واقِفةً عِنْدَ البابِ تَتَحَدَّثُ إلى المُسْتَشارِ .

بَسَطَ المُسْتَشارُ يَدَيْهِ لِلُورْنا قائِلًا : « إِنَّكِ تَبْدينَ بِخَيْرٍ يا ابْنَتي العَزيزةَ ! هَيَّا قَبِّلي عَمَّكِ . »

أَجابَتْ : « لا أَرْغَبُ في تَقْبيلِكَ ، فَرائِحةُ الدُّخانِ تَفوحُ مِنْكَ . » وَصَمَتَ المُسْتَشارُ بُرْهةً ، ثُمَّ قالَ : « إِذًا فَأَنْتَ جُون رِد .. جُون رِد ،

المُقاتِلُ الشُّجاعُ الَّذي يُريدُ الزَّواجَ بِابْنَتِنا لُورْنا . حَسَنًا ، أَعْتَقِدُ أَنَّكُما سَتَكونانِ سَعيدَيْنِ مَعًا بِهٰذا الزَّواجِ ، فَسَيَكونُ لَدَيْكُما مَوْضوعٌ مُشْتَرَكٌ تَتَحَدَّثانِ فيهِ دائِمًا : أَلا وَهُوَ ما فَعَلَ والِدُ كُلٍّ مِنْكُما بِالآخَرِ ! »

قُلْتُ : « لَسْتُ أَفْهَمُ ما تَعْنيهِ بِهٰذا الكَلامِ . »

قالَ الرَّجُلُ في نَبْرةٍ حاسِمةٍ : « أَعْني أَنَّ والِدَ لُورْنا قَتَلَ أَباكَ ، وَأَنَّ أَباكَ قَتَلَ والِدَ لُورْنا . »

كانَ ذٰلِكَ أَفْظَعَ شَيْءٍ يُمْكِنُ أَنْ أَسْمَعَهُ .

قُلْتُ في ذُهولٍ : « وَلٰكِنَّكَ تَعْرِفُ أَنَّ سِيْر إِنْسُور وافَقَ عَلى زَواجي بِلُورْنا وَبارَكَهُ ... إِنَّنا مُتَحابَّانِ ، وَسَنَظَلُّ مُتَحابَّيْنِ إلى الأَبَدِ . »

صاحَتْ لُورْنا قائِلةً : « أَنْتَ عَلى حَقٍّ ياجُون .. أَنا لا أُصَدِّقُ ما قالَهُ المُسْتَشارُ عَنْ أَبَوَيْنا ... إِنَّنا مُتَحابَّانِ ، وَلَنْ يَنالَ شَيْءٌ في الدُّنْيا مِنْ حُبِّنا ، أَوْ يَحولَ دونَ إِتْمامِ زَواجِنا . »

باتَ المُسْتَشارُ تِلْكَ اللَّيْلةَ في بَيْتِنا . وَفي الصَّباحِ ، أَخْبَرَتْني لُورْنا أَنَّها شَعَرَتْ أَثْناءَ اللَّيْلِ بِحَرَكةٍ غَريبةٍ في المَنْزِلِ ، وَكَأَنَّ شَخْصًا يَجوسُ في أَرْجائِهِ بَحْثًا عَنْ شَيْءٍ مُعَيَّنٍ .

خَرَجْتُ آني إلى قاعةِ الأَلْبانِ قُبَيْلَ الضُّحى ، فَتَبِعَها المُسْتَشارُ . وَتَطَلَّعَ الرَّجُلُ إلى الآنِيةِ المَليئةِ بِالحَليبِ . ثُمَّ قالَ لِآني : « أَتَعْرِفينَ أَنَّهُ لَوْ مَرَرْتِ بِعِقْدٍ

زُجاجِيٍّ عَلى صَفْحةِ هٰذا آللَّبَنِ ، فَسَوْفَ تَتَكَوَّنُ آلقِشْدةُ عَلى سَطْحِهِ بِسُرْعةٍ أَكْبَرَ ؟ »

أَجابَتْ آني بِدَهْشةٍ : « هٰذِهِ مَعْلومةٌ جَديدةٌ لَمْ أَسْمَعْ بِها مِنْ قَبْلُ ! »

عِنْدَئِذٍ أَسْرَعَ آلمُسْتَشارُ يَسْأَلُها : « هَلْ لَدَيْكِ عِقْدٌ زُجاجِيٌّ ؟ » فَهَتَفَتْ آني ، وَقَدْ تَمَلَّكَها آلحَماسُ لِعَمَلِ آلتَّجْرِبةِ : « لُورْنا تَمْلِكُ واحِدًا ، وَأَنا أَعْرِفُ مَكانَهُ . كانَ جُون يَحْتَفِظُ بِهِ يَوْمًا ما ، وَلٰكِنَّهُ في حُجْرةِ لُورْنا آلآنَ .. سَأَذْهَبُ لِإحْضارِهِ . »

جَرَتْ إلى آلمَنْزِلِ ، ثُمَّ عادَتْ بِآلعِقْدِ . وَطافَ بِهِ آلمُسْتَشارُ عَلى سَطْحِ آللَّبَنِ – وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَبَّأَهُ تَحْتَ آلوِعاءِ قائِلًا : « أُتْرُكيهِ هُنا لِمُدَّةِ يَوْمٍ وَلَيْلةٍ ، وَلا تُخْبِري أَحَدًا بِمَكانِهِ . »

غادَرَتْ آني قاعةَ آلأَلْبانِ ، وَبَعْدَها بِلَحَظاتٍ غادَرَها آلمُسْتَشارُ كَذٰلِكَ ، وَلٰكِنْ بَعْدَ أَنْ وَضَعَ في جَيْبِهِ آلعِقْدَ آلثَّمينَ !

آلفَصْلُ آلسَّابِعُ وَآلعِشْرونَ

قِصَّةُ جيرِيمي

في مَساءِ آليَوْمِ ذاتِهِ ، عادَ جيرِيمي ستِكِلْز لِيُخْبِرَني أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ أُعِدَّ لِلْمَعْرَكةِ آلكُبْرى ضِدَّ آلِ دُون ، فَأَخْبَرْتُهُ بِدَوْري عَنْ سَرِقةِ آلمُسْتَشارِ لِلْعِقْدِ .

وَرَوى لي جيرِيمي آخِرَ ما عَرَفَهُ مِنْ جَرائِمِ آلِ دُون ، فَقالَ : « كُنْتُ في بَلْدةٍ واتْشِت مُنْذُ أَيّامٍ قَليلةٍ . وَآلْتَقَيْتُ هُناكَ بِسَيِّدةٍ إيطالِيَّةٍ تُدْعى بِينِيتّا ، وَكانَتْ تَعْمَلُ خادِمةً لَدى عائِلةٍ إيطالِيَّةٍ تَقْطُنُ إحْدى مُدُنِ إيطالْيا . وَجاءَ إلى آلمَدينةِ لُورْد إنْجليزِيٌّ وَتَزَوَّجَ ابْنةَ هٰذِهِ آلعائِلةِ ثُمَّ آصْطَحَبَ آللُّورْد زَوْجَتَهُ وَمَعَهُما آلخادِمةُ بِينِيتّا إلى بَيْتِهِ . وَكانَ آللُّورْد كَثيرَ آلتَّحَدُّثِ عَنْ عائِلَتِهِ في إنْجِلْتِرا ، وَرَوى كَيْفَ فَقَدَ أَحَدُ أَفْرادِ آلعائِلةِ كُلَّ أَراضيهِ وَأَصْبَحَ مُجْرِمًا خارِجًا عَلى آلقانونِ . وَقَدْ قُتِلَ آللُّورْد ذاتَ يَوْمٍ وَهُوَ يَجولُ عَلى ظَهْرِ جَوادِهِ .

« رَحَلَتْ زَوْجَتُهُ آلإيطالِيَّةُ ، وَمَعَها ابْنَتُها آلصَّغيرةُ ، وَخادِمَتُها بِينِيتّا إلى إنْجِلْتِرا وَوَصَلْنَ إلى هٰذِهِ آلمُقاطَعةِ حَيْثُ اسْتَأْجَرْنَ عَرَبةً تُقِلُّهُنَّ إلى مَنْزِلِهِنَّ آلَّذي يَقَعُ في مَكانٍ ما قُرْبَ مَزْرَعَتِكَ . وَحَذَّرَهُنَّ آلسَّائِقُ مِنْ أَنَّ آلَ دُون قَدْ يَقْطَعونَ عَلَيْهِنَّ آلطَّريقَ ، وَلٰكِنَّ آلسَّيِّدةَ قالَتْ إنَّها لا تَخْشى ذٰلِكَ ، لِأَنَّها تَعْلَمُ أَنَّ آلَ دُون لا يُؤْذونَ آلسَّيِّداتِ وَآلأَطْفالَ .

« مَرَّتِ آلعَرَبةُ بِبَلْدةِ واتْشِت وَاقْتَرَبَتْ مِنْ شاطِئِ آلبَحْرِ . وَلاحَ في آلأُفُقِ رِجالٌ عَلى ظُهورِ آلجِيادِ يَتَّجِهونَ نَحْوَ آلعَرَبةِ ، وَحاوَلَ آلسَّائِقُ أَنْ يُسْرِعَ

لِيَتَمَكَّنَ مِنَ ٱلهَرَبِ . وَلٰكِنَّ ٱلعَجَلاتِ انْغَرَزَتْ في ٱلرِّمالِ ٱلرَّخْوةِ .

« وَما إنْ ظَهَرَ ٱلرِّجالُ عَنْ قُرْبٍ حَتَّى صاحَتِ ٱلسَّيِّدةُ قائِلةً إنَّها تَعْرِفُ واحِدًا مِنْهُمْ وَإنَّهُ عَدُوٌّ قَديمٌ لِأُسْرَتِها .

« وَكانَتِ ٱلخادِمةُ بِينِيتّا تَحْمِلُ عُلْبَةَ ٱلجَواهِرِ ٱلخاصَّةِ بِسَيِّدَتِها ، وَفي داخِلِها عِقْدٌ مِنَ ٱلماسِ ٱلثَّمينِ . وَلَفَّتِ ٱلعِقْدَ حَوْلَ عُنُقِ ٱلابْنةِ ٱلصَّغيرةِ . وَهاجَمَ ٱلرِّجالُ ٱلعَرَبةَ ، وَكانوا مِنْ آلِ دُون ، فانْحَدَرَتْ نَحْوَ ٱلبَحْرِ . وَارْتَمَتْ بِينِيتّا عَلى ٱلرِّمالِ فاقِدةً ٱلوَعْيَ . وَعِنْدَما أَفاقَتْ كانَ ٱلرِّجالُ قَدِ اخْتَفَوا حامِلينَ مَعَهُمُ ٱلفَتاةَ ٱلصَّغيرةَ . أَمَّا ٱلسَّيِّدةُ ٱلأُمُّ ، فَقَدْ نُقِلَتْ إلى بَلْدةِ واتْشِت حَيْثُ ماتَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ بِقَليلٍ .

« وَبَقِيَتْ بِينِيتّا في واتْشِت بِمُفْرَدِها بِلا نُقودٍ ، فَقَدْ نَهَبَ آلُ دُون كُلَّ شَيْءٍ ، كَما احْتَجَزَتِ ٱلحُكومةُ أَراضيَ سَيِّدَتِها رَيْثَما تَجِدُ وَريثَتَها ٱلشَّرْعِيَّةَ ، إذْ إنَّ ٱلفَتاةَ ٱلمَخْطوفةَ هِيَ ٱلوَريثةُ ٱلشَّرْعِيَّةُ ٱلوَحيدةُ لِكُلِّ تِلْكَ ٱلأَراضي . »

حينَئِذٍ تَذَكَّرْتُ ذٰلِكَ ٱلَيَوْمَ ٱلَّذي كُنْتُ عائِدًا فيهِ مِنَ ٱلمَدْرَسةِ إلى قَرْيَتي بَعْدَ مَوْتِ والِدي ، وَتَذَكَّرْتُ ٱلخادِمةَ ٱلإيطالِيَّةَ ٱلَّتي طَلَبَتْ مِنِّي كُوبَ ماءٍ لِسَيِّدَتِها ، كَما تَذَكَّرْتُ كَيْفَ مَرَرْتُ بَعْدَ ذٰلِكَ بِٱلعَرَبةِ ٱلَّتي كانَتْ فيها ٱلسَّيِّدةُ ، وَإلى جانِبِها فَتاةٌ صَغيرةٌ جَميلةٌ وَكَيْفَ رَأَيْتُ ، فيما بَعْدُ ، رِجالًا راكِبينَ ٱلجِيادَ وَيَحْمِلُ أَحَدُهُمْ فَتاةً صَغيرةً عَلى جَوادِهِ !

إنَّ لُورْنا إذًا تَنْتَمي لِأُسْرةِ لوردٍاتٍ عَظيمةٍ ، كَما تَمْتَلِكُ أَراضِيَ شاسِعةً

وَقَدْ لا أَسْتَطيعُ ٱلزَّواجَ بِها أَبَدًا . غَيْرَ أَنَّني خَرَجْتُ مِنْ قِصَّةِ جيريمي بِشَيْءٍ آخَرَ بالِغِ ٱلأَهَمِّيَّةِ : لَيْسَ صَحيحًا أَنَّ والِدَ لُورْنا هُوَ ٱلرَّجُلُ ٱلَّذي قَتَلَ والِدي .

اِمْتَطَيْتُ جَوادي وَسافَرْتُ إلى واتْشِت ، حَيْثُ ٱلْتَقَيْتُ بِبِينِيتّا . وَأَرَيْتُها ٱلخاتَمَ ٱلعَريقَ ٱلَّذي أَعْطاهُ لي سِيْر إنْسُور . وَعَرَفَتْ بِينِيتّا ٱلخاتَمَ في ٱلحالِ ، فَقَدْ كانَ خاتَمَ سَيِّدَتِها ٱلإيطالِيَّةِ .

عِنْدَئِذٍ أَيْقَنْتُ أَنَّ لُورْنا لا تَنْتَمي لِآلِ دُون . إنَّ اسْمَها ٱلحَقيقيَّ هُوَ ديوجال ، فَهِيَ ابْنةُ لوردْ ديوجال . كَما اكْتَشَفْتُ كَذٰلِكَ خُطَّةَ آلِ دُون ٱلجَهَنَّمِيَّةَ : فَقَدْ كانوا يُريدونَ أَنْ يَتَزَوَّجَ كارْقَر لُورْنا حَتَّى يَتَمَكَّنوا مِنْ ٱلاسْتيلاءِ عَلى كُلِّ أَراضيها !

الفَصْلُ آلثَّامِنُ وَآلعِشْرونَ

مَعْرَكةُ آلوادي آلأُولى

تَهَيَّأَتْ ثَلاثُ مَجْموعاتٍ مِنَ آلمُقاتِلينَ لِشَنِّ آلهُجومِ عَلى وادي آلِ دُون :

آلأُولى سِتُّونَ رَجُلًا مِنْ إقْليمِ سُومِرْسِت ، يَرْتَدونَ مَلابِسَ صَفْراءَ .

آلثَّانيةُ سِتُّونَ رَجُلًا مِنْ إقليمِ ديڤون ، يَرْتَدونَ مَلابِسَ حَمْراءَ .

آلثَّالثةُ خَمْسةٌ وَثَلاثونَ فارِسًا مِنْ جَيْشِ آلمَلِكِ .

وَكانَتْ لَدَيْنا ثَلاثةُ مَدافِعَ تَجُرُّها آلجِيادُ : مِدْفَعٌ لِكُلِّ مَجْموعةٍ . وَبَدَأْنا آلمَسيرةَ مَعًا نَحْوَ آلوادي .

كانَتِ آلخُطَّةُ تَقْضي بِأَنْ يُرابِضَ رِجالُ سُومِرْسِت في آلتِّلالِ آلواقِعةِ شَرْقيَّ آلوادي ، حَتَّى يَصِلَ رِجالُ ديڤون إلى آلمُرْتَفَعاتِ آلَّتي تَحِدُّ آلواديَ مِنَ آلغَرْبِ ، وَأَنْ تُطْلِقَ آلقُوَّتانِ مَعًا نيرانَها عَلى آلِ دُون مِنَ آلشَّرْقِ وَمِنَ آلغَرْبِ في آنٍ واحِدٍ ، عَلى حِينِ يَتَقَدَّمُ فُرْسانُ آلجَيْشِ – وَعَلى رَأْسِهِمْ جِيريمي ستِكِلْز وَأَنا – لِاقْتِحامِ آلوادي عَبْرَ آلبَوَّابةِ . تِلْكَ كانَتْ خُطَّتَنا آلمَرْسومةَ ، إلَّا أَنَّ آلأُمورَ لَمْ تَسِرْ كَما خَطَّطْنا لَها .

لَقَدْ بَلَغْنا بَوَّابةَ آلِ دُون وَكانَ مِدْفَعُنا مُعَدًّا . وَما إنْ سَمِعْنا دَوِيَّ آلرَّصاصِ يَنْطَلِقُ مِنْ ناحِيَتَي آلشَّرْقِ وَآلغَرْبِ ، حَتَّى انْدَفَعْنا إلى آلجانِبِ آلآخَرِ مِنَ آلتَّلِّ لِاقْتِحامِ آلبَوَّابةِ بِمِدْفَعِنا . وَاقْتَرَبْنا مِنَ آلبَوَّابةِ ، فَلَمْ نَجِدْ أَحَدًا هُناكَ غَيْرَ أَنَّ آلعَدُوَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ فاجَأَنا بِإِطْلاقِ آلنَّارِ مِنْ مَكانٍ مَجْهولٍ ، مُسْتَخْدِمًا في ذٰلِكَ

آثْنَتَيْ عَشْرةَ بُنْدُقِيَّةً ، أَوْ ما يَقْرُبُ مِنْ هٰذا آلعَدَدِ . وَسَقَطَ مِنْ بَيْننا بَعْضُ آلرِّجالِ ، وَلٰكِنَّ ذٰلِكَ لَمْ يَنَلْ مِنْ شَجاعةِ آلآخرينَ . وَكُنَّا – أنا وَجيريمي – في آلمُقَدِّمةِ ، وَمِنْ وَرائِنا آلمِدْفَعُ تَجُرُّهُ آلجيادُ .

وَسَرْعانَ ما آكْتَشَفْنا أَنَّ آل دُون يَتوارَوْنَ وَراءَ بَعْضِ آلشُّجَيْراتِ آلكَثيفةِ ، فَعَدَوْنا لِمُلاقاتِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنوا مِنْ حَشْوِ بَنادِقِهِمْ بِآلرَّصاصِ . وَفَجْأَةً دَوَّى صَوْتُ آرْتِطامٍ هائِلٍ مِنْ وَرائي ، أَعْقَبَهُ جَلَبَةٌ عالِيةٌ وَصَرَخاتٌ مُرْعِبةٌ مِنَ آلرِّجالِ وَآلجيادِ – فَلَقَدْ أُسْقِطَتْ شَجَرةٌ ضَخْمةٌ مِنْ فَوْقِ قِمَّةِ آلتَّلِّ عَلى آلجِيادِ وَآلمِدْفَعِ ، فَأُصابَتِ آثْنَيْنِ مِنْ رِجالِنا ، وَقَصَمَتْ ظَهْرَ أَحَدِ آلجِيادِ ، وَكَسَرَتْ ساقَ جَوادٍ آخَرَ .

تَمَلَّكَني غَضَبٌ شَديدٌ ، فَقَدْ كُنْتُ أُحِبُّ هٰذَيْنِ آلجَوادَيْنِ حُبًّا جَمًّا ، وَجَرَيْتُ عائِدًا إلى مَكانِ آلحادِثِ . وَتَبِعَني سِتَّةُ رِجالٍ ، مِنْ بَيْنِهِمْ جيريمي . وَأَطْلَقَ آل دُون آلرَّصاصَ عَلَيْنا ، فَأُصابوا بَعْضًا مِنْ رِجالِنا ، غَيْرَ أَنَّني واصَلْتُ آلسَّيْرَ . وَحَمَلْتُ آلمِدْفَعَ بَيْنَ يَدَيَّ ، وَآقْتَحَمْتُ بِهِ في جُنونٍ بابَ آلبَوَّابةِ آلخَشَبِيَّ آلضَّخْمَ فَتَحَطَّمَ . وَآنْحَشَرَ آلمِدْفَعُ في فُتْحةِ آلبابِ آلمُحَطَّمِ حَتَّى إنَّني لَمْ أَسْتَطِعْ تَخْليصَهُ بِجَذْبِهِ إلى آلخارِجِ ، وَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا بِآلقُرْبِ مِنِّي يُسْرِعُ إلى مَعونَتي . وَتَراجَعْتُ بِضْعَ خُطُواتٍ إلى آلخَلْفِ بَحْثًا عَنْ جيريمي ، فَوَجَدْتُهُ مُمَدَّدًا عَلى آلأَرْضِ ، مُلَطَّخَ آلوَجْهِ بِآلدِّماءِ . وَحَمَلْتُهُ في آلتَّوِّ إلى مَكانٍ مَأْمونٍ حَيْثُ تَمَّ إسْعافُهُ .

فُوجِئْتُ بَعْدَ لَحَظاتٍ بِغُلامٍ مِنْ أَتْباعِنا يُسْرِعُ إلَيَّ قائِلًا : « لَقَدْ خَسِرْنا آلمَعْرَكةَ . إنَّ رِجالَ ديڤون وَرِجالَ سُومِرْسِت يَتَقاتَلونَ .... لَقَدْ هَزَمَنا آل دُون . »

صَنَعْنا عَرَبةً مِنْ غُصونِ آلأَشْجارِ لِتَحْمِلَ جَرْحانا ، وَاسْتَخْدَمْنا آلجِيادَ آلَّتي بَقِيَتْ عَلى قَيْدِ آلحَياةِ في جَرِّها .

وَآلآنَ سَأُخْبِرُكُمْ كَيْفَ نَشِبَ آلقِتالُ بَيْنَ فَريقَيْ ديڤون وَسُومِرْسِت :

كانَ عَلى رِجالِ ديڤون أَنْ يَسيروا مَسافةً طَويلةً لِكَيْ يَصِلوا إلى مَوْقِعِهِمْ عَلى آلحُدودِ آلغَرْبِيَّةِ لِوادي آلِ دُون . وَكانوا يَخْشَوْنَ أَنْ يَبْدَأَ رِجالُ سُومِرْسِت آلمَعْرَكةَ قَبْلَ وُصولِهِمْ ، فَيَفْخَروا ، فيما بَعْدُ ، بِأَنَّهم قَدْ أَحْرَزوا آلنَّصْرَ بِمُفْرَدِهِمْ . فَما إنْ أَتَوْا إلى مَوْقِعِهِمْ فَوْقَ آلتِّلالِ آلغَرْبِيَّةِ ، حَتَّى جَهَّزوا مِدْفَعَهُمْ ، ثُمَّ أَطْلَقوا دونَ تَصْويبٍ مُحَدَّدٍ . وَعَبَرَتِ آلقَذيفةُ آلوادِيَ وَأَصابَتْ رِجالَ سُومِرْسِت عَلى آلجانِبِ آلآخَرِ فَقُتِلَ واحِدٌ مِنْهُمْ وَجُرِحَ آثْنانِ .

ثارَتْ ثائِرةُ رِجالِ سُومِرْسِت وَظَنُّوا بِرِجالِ ديڤون آلظُّنونَ ، فَرَدُّوا عَلَيْهِمْ بِإِطْلاقِ نارِ مِدْفَعِهِمْ ، وَأَسْقَطوا مِنْهُمْ خَمْسةَ رِجالٍ . وَنَشِبَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ مَعْرَكةٌ بَيْنَ رِجالِ فَريقَيْ ديڤون وَسُومِرْسِت .

في تِلْكَ آلأَثْناءِ ، خَرَجَ آل دُون مِنَ آلطَّريقِ آلسِّرِّيِّ ، آلَّذي كانَتْ تَسْتَخْدِمُهُ جُويني مِنْ قَبْلُ ، وَهاجَموا رِجالَ سُومِرْسِت ، أَيْضًا ، فَقَتَلوا أَرْبَعةً مِنْهُمْ ، وَاسْتَوْلَوْا عَلى مِدْفَعِهِمْ .

أَمّا رِجالُ ديڤون فَقَدْ عادوا إلى مُقاطَعَتِهِمْ ، وَمَعَهُمْ مِدْفَعُهُمْ يَجُرُّونَ أَذْيالَ آلخَيْبةِ .

وَهٰكَذا خَسِرْنا تِلْكَ آلجَوْلةَ ضِدَّ آلِ دُون .

الفَصْلُ آلتَّاسِعُ وَآلعِشْرونَ

رَحيلُ لُورْنا

كُنْتُ مُسافِرًا لِزِيارةِ بَعْضِ آلأَصْدِقاءِ ، وَفُوجِئْتُ عِنْدَ عَوْدَتي أَنَّ لُورْنا لَمْ تُسْرِعْ لِلِقائي كَعادَتِها ، عِنْدَ بابِ آلحَديقةِ .

سَأَلْتُ أُمِّي : « أَيْنَ لُورْنا ؟ » فَلَمْ تُجِبْ .

آلْتَفَتُّ إلى أُخْتي ليزي مُكَرِّرًا نَفْسَ آلسُّؤالِ .

رَدَّتْ ليزي قائِلةً : « لَقَدْ ذَهَبْتِ آللَّيدي لُورْنا ديوجال إلى لَنْدَن ، وَأَظُنُّ أَنَّها لَنْ تَعودَ ثانِيةً . »

صِحْتُ : « لَقَدْ رَحَلَتْ لُورْنا .. رَحَلَتْ حَبيبَتي لُورْنا دونَ أَنْ تُوَدِّعَني ! »

أَضافَتْ ليزي قائِلةً : « لَقَدْ بَكَتْ طَويلًا قَبْلَ رَحيلِها وَتَرَكَتْ لَكَ خِطابًا في غُرْفَتِها . »

جَرَيْتُ إلى حُجْرةِ لُورْنا ، وَفَتَحْتُ آلخِطابَ ، وَقَرَأْتُ آلسُّطورَ آلتَّالِيةَ :

« يا أَحَبَّ آلنَّاسِ إِلَيَّ ، أَرْجو أَنْ تُقَدِّرَ سَبَبَ رَحيلي دونَ أَنْ أُوَدِّعَكَ ، فَقَدْ رَفَضَ رِجالُ آلمَلِكِ آلِانْتِظارَ .. إنَّ عَمِّي – وَهُوَ أَحَدُ كِبارِ آللُّوْردات – يَنْتَظِرُني في بَلْدةِ دَنستَر لِأَنَّ آلمَلِكَ أَمَرَ بِأَنْ أَكونَ تَحْتَ وِصايةِ هٰذا آلعَمِّ إلى أَنْ أَبْلُغَ سِنَّ آلحادِيةِ وَآلعِشْرينَ ...

« هٰذا حُكْمٌ قاسٍ وَغَيْرُ عادِلٍ . وَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّني لا أُريدُ أَراضِيَّ وَلا لُقودي ، وَإِنَّني أَرْغَبُ في آلبَقاءِ هُنا فَحَسْبُ ، وَلٰكِنَّهُمْ أَخْبَروني أَنَّني يَجِبُ أَنْ أُطيعَ أَمْرَ آلمَلِكِ . لَنْ يُبْعِدَني عَنْكَ شَيْءٌ ، أَوْ يَأْخُذَني مِنْكَ أَحَدٌ . »

المُخْلِصةُ إلى آلأَبَدِ

لُورْنا ديوجال

وَبِرَغْمِ ما كانَ يَبْدو مِنْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدِ انْتَهى ، فَإِنَّ قَلْبي كانَ يُحَدِّثُني بِأَنَّ آلنِّهايةَ سَتَكونُ سَعيدةً .

الفَصْلُ آلثَّلاثونَ

لا رَسائِلَ مِنْ لُورْنا

في شَهْرِ فِبْرايرِ مِنْ ذٰلِكَ آلعامِ – ١٦٨٥ – تَلَقَّينا نَبَأَ وَفاةِ آلمَلِكِ . وَخَشِيتُ أَنْ تَنْدَلِعَ آلاِضطِراباتُ في بَعْضِ أَنْحاءِ آلمَمْلَكَةِ ، إِذْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ طائِفَةً كَبيرَةً مِنَ آلنَّاسِ لا تُحِبُّ آلمَلِكَ آلجَديدَ جيمس ، وَأَنَّ بَعْضَ آلنَّاسِ يَتَهَيَّأونَ لِلْقِتالِ ضِدَّهُ بِآلفِعْلِ . كَما بَلَغَني أَنَّ دُوقَ مونْمَوْث سَوْفَ يَأْتي عَبْرَ آلبَحْرِ قادِمًا مِنْ فَرَنْسا إِلى جَنوبِ إِنْجِلْتِرا ، وَأَنَّ كُلَّ فَلَّاحي آلجَنوبِ سَوْفَ يَنْضَمُّونَ إِلَيْهِ ضِدَّ آلمَلِكِ . وَكانَ آلقَلَقُ يَسودُ آلمَمْلَكَةَ بِأَسْرِها ، كَما كانَ هُناكَ حَديثٌ بَيْنَ آلنَّاسِ بِأَنَّ آلقاضيَ جيفْريز سَوْفَ يَأْتي إِلى آلجَنوبِ لِيَشْنُقَ كُلَّ آلَّذينَ يُخَطِّطونَ لِلْحَرْبِ ضِدَّ آلمَلِكِ آلجَديدِ .

مَرَّتْ عِدَّةُ شُهورٍ دونَ أَنْ أَتَلَقّى رِسالَةً واحِدَةً مِن لُورْنا حَتّى إِنَّني ظَنَنْتُ أَنَّها نَسِيَتْني تَمامًا . وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ عُنْوانَها في لَنْدَن حَتّى أَكْتُبَ لَها ، غَيْرَ أَنَّني كُنْتُ أَتَقَصّى أَخْبارَها مِنْ آلجُنودِ وَآلتُّجّارِ آلَّذينَ يَأْتونَ بَيْنَ آلحينِ وَآلآخَرِ مِنْ هُناكَ . وَلَقَدْ ذَكَرَ لي هٰؤُلاءِ أَنَّها اشْتَهَرَتْ في آلعاصِمَةِ بِجَمالِها ، وَأَنَّ عَدَدًا كَبيرًا مِنَ آللُّوردَاتِ آلشُّبّانِ يَسْعى لِلزَّواجِ بِها طَمَعًا في أَمْوالِها .

وَما إِنْ بَلَغَتْني تِلْكَ آلأَنْباءُ ، حَتّى اكْتَأَبَتْ نَفْسي ، وَاغْتَمَّ فُؤادي ، وَشَعَرْتُ أَنَّني فَقَدْتُ كُلَّ آمالي .

الفَصْلُ آلحادي وَآلثَّلاثونَ

تُوم فاجَّس يَخرُجُ لِلْقِتالِ

مَرَّتْ بِضْعَةُ أَيّامٍ ، عانَيْتُ خِلالَها مِنَ آليَأْسِ وَآلحُزْنِ . وَجاءَتْني آني ذاتَ صَباحٍ باكِيَةً ، وَسَأَلْتُها عَنْ سَبَبِ بُكائِها فَقالَتْ : « آهٍ ، ياجُون . لَقَدْ رَحَلَ زَوْجي تُوم فاجَّس لِيُحارِبَ مَعَ رِجالِ آلدُّوقِ ضِدَّ آلمَلِكِ ! يَجِبُ أَنْ تَخْرُجَ بَحْثًا عَنْهُ ، وَتَعودَ بِهِ إِلى آلبَيْتِ . » فَأَجَبْتُها : « أَعِدُكِ بِأَنْ أُحاوِلَ ذٰلِكَ بِأَقْصى ما في وُسْعي . »

في آليَوْمِ آلتّالي غادَرْتُ آلبَلْدَةَ بَحْثًا عَنْ تُوم . وَبَعْدَ مَسيرَةٍ طَويلَةٍ أَتَيْتُ إِلى بَلْدَةِ بِردْجْوتَر فَوَجَدْتُ جَيْشَ آلدُّوقِ مُعَسْكِرًا هُناكَ . وَلَمْ يَكُنْ جَيْشًا بِآلمَعْنى آلحَقيقيِّ ، فَقَدْ كانَ يَتَأَلَّفُ مِنْ جَماعاتٍ مِنَ آلفَلَّاحينَ آلَّذينَ لَمْ يُدَرَّبوا عَلى آلقِتالِ ، أَوْ حَتّى عَلى إِطْلاقِ آلنّارِ .

كُنْتُ مُتْعَبًا جِدًّا ، فَقَصَدْتُ فُنْدُقًا صَغيرًا لِأَقْضيَ فيهِ آللَّيْلَ . وَلَمْ تَلْبَثْ صاحِبَةُ آلفُنْدُقِ أَنْ أَيْقَظَتْني مِنَ آلنَّوْمِ قائِلَةً : « انْهَضْ ، لَقَدْ بَدَأَتِ آلمَعْرَكَةُ . » وَما إِنْ سَمِعْتُ صَوْتَ إِطْلاقِ آلنّارِ حَتّى آنْطَلَقْتُ عَلى جَوادي عَبْرَ شَوارِعَ جانِبِيَّةٍ ضَيِّقَةٍ إِلى خارِجِ آلبَلْدَةِ ، ثُمَّ واصَلْتُ آلسَّيْرَ حَتّى أَتَيْتُ مِنْطَقَةَ آلمُسْتَنْقَعاتِ . وَكانَ آلضَّبابُ كَثيفًا تَعَذَّرَتْ مَعَهُ رُؤْيَةُ آلطَّريقِ .

وَصَلْتُ قَرْيَةً صَغيرَةً تُسَمّى زيلانْد ، وَعَرَفْتُ أَنَّ رِجالَ آلمَلِكِ كانوا يَبيتونَ فيها ، وَأَنَّهُمْ غادَروها عَقِبَ هُجومِ رِجالِ آلدُّوقِ عَلَيْهِمْ أَثْناءَ آللَّيْلِ .

لَقِيتُ هُناكَ شابًّا يَعْرِفُ طُرُقَ ٱلمِنْطَقَةِ جَيِّدًا ، فَقادَني إلى مُؤَخَّرةِ جَيْشِ ٱلدُّوقِ . وَكانَتِ ٱلسّاعةُ ٱلرّابعةَ صَباحًا حينَ وَصَلْنا أَرْضَ ٱلمُسْتَنْقَعاتِ ٱلمَكْشوفةَ . وَما إنْ طَلَعَتِ ٱلشَّمْسُ حَتّى رَأَيْتُ عَلى ضَوْئِها مَشْهَدًا مُرَوِّعًا : رَأَيْتُ رِجالًا فارِّينَ مِنَ ٱلمَعْرَكةِ ، وَٱلذُّعْرُ بادٍ في عُيونِهِمْ وَأَجْسادُهُمْ مُلَطَّخةٌ بِٱلدَّمِ وَٱلتُّرابِ – رِجالًا يَعْدونَ في جُنونٍ ، لا يُريدونَ إلّا ٱلنَّجاةَ مِنَ ٱلمَوْتِ . كَما رَأَيْتُ قَتْلى راقِدينَ عَلى ٱلأَرْضِ بِعُيونٍ مَفْتوحةٍ يُطِلُّ مِنْها ٱلرُّعْبُ ٱلَّذي قاسَوْهُ في لَحَظاتِهِمْ ٱلأَخيرةِ . وَكانوا جَميعًا مِنَ ٱلفَلّاحينَ ٱلبُسَطاءِ ٱلَّذينَ لَمْ يُمارِسوا ٱلحَرْبَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَمْ يُمْسِكوا أَبَدًا بِبُنْدُقِيَّةٍ . إنَّهُمُ ٱلآنَ مَوْتى . لَقَدْ ماتوا بَعْدَ أَنْ عانَوْا آلامًا رَهيبةً .

كانَ هٰؤُلاءِ ٱلفارُّونَ يَصيحونَ وَأَنا أَمُرُّ بِهِمْ : « لَقَدِ ٱنْتَهَتِ ٱلمَعْرَكةُ – فَقَدْ وَصَلَتْ مِدْفَعِيَّةُ ٱلمَلِكِ ، وَهِيَ تَحْصُدُ رِجالَنا ٱلآنَ حَصْدًا . »

حاوَلْتُ أَنْ أُساعِدَ بَعْضَ ٱلجَرْحى دامِعَ ٱلعَيْنَيْنِ . وَناوَلْتُ أَحَدَهُمْ كُوبَ ماءٍ وَهُوَ يَلْفِظُ أَنْفاسَهُ ٱلأَخيرةَ . وَطَلَبَ مِنّي أَنْ أُطْلِعَ زَوْجَتَهُ عَلى نُقودٍ كانَ قَدْ أَخْفاها في شَجَرةِ تُفّاحٍ . وَشَعَرْتُ في تِلْكَ ٱلأَثْناءِ بِشَيْءٍ ناعِمٍ يَلْمِسُ خَدّي وَٱلْتَفَتُّ فَرَأَيْتُ وِني (فَرَسَ تُوم) ، وَنَظَرَتِ ٱلفَرَسُ إلَيَّ ، ثُمَّ أَدارَتْ وَجْهَها . وَبَدَتْ وَكَأَنَّها تُريدُ أَنْ تَقولَ لي شَيْئًا . وَرَكَضَتْ بِضْعَ خُطُواتٍ ، ثُمَّ ٱسْتَدارَتْ وَنَظَرَتْ إلَيَّ مَرَّةً أُخْرى . عِنْدَئِذٍ أَدْرَكْتُ ما كانَتْ تَعْنيهِ ، فامْتَطَيْتُ حِصاني وَسِرْتُ وَراءَها .

وَصَلْنا إلى خَطِّ ٱلمَعْرَكةِ وَرَأَيْتُ رِجالَ ٱلدُّوقِ واقِفينَ لا حَوْلَ لَهُمْ بِجِوارِ

ضِفَّةِ نَهْرٍ عَجَزوا عَنْ عُبورِهِ . وَكانَ ٱلمَوْقِفُ يَدعو إلى ٱلضَّحِكِ وَٱلرِّثاءِ في آنٍ واحِدٍ : كانَ رِجالُ ٱلدُّوقِ عُزَّلًا مِنَ ٱلسِّلاحِ ، وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ كانوا يَصيحونَ في جُنودِ ٱلمَلِكِ ٱلواقِفينَ عَلى ٱلضِّفَّةِ ٱلمُواجِهةِ قائِلينَ : « هَيّا اعْبُروا إلَيْنا وَقاتِلونا . » وَلَمْ يَلْبَثِ ٱلجُنودُ أَنْ أَمْطَروهُمْ بِوابِلٍ مِنَ ٱلرَّصاصِ ، فَقَتَلوا ٱلكَثيرينَ مِنْهُمْ .

ٱنْدَفَعَ فُرْسانُ ٱلمَلِكِ ناحِيَتَهُمْ ، وَخاضوا في صُفوفِهِمْ ، وَداسوا عَلى مَنْ تَبَقّى مِنْهُمْ حَيًّا بِحَوافِرِ جِيادِهِمْ . وَكانَتْ صَرَخاتُ ٱلقَتْلى وَأَنّاتُ ٱلجَرْحى تَصُمُّ ٱلآذانَ .

وَٱسْتَأْنَفْتُ وِني ٱلسَّيْرَ ، وَسِرْتُ وَراءَها .

وَقَفَتِ ٱلفَرَسُ أَخيرًا أَمامَ كُوخٍ صَغيرٍ وَصَهَلَتْ في صَوْتٍ خَفيضٍ ،

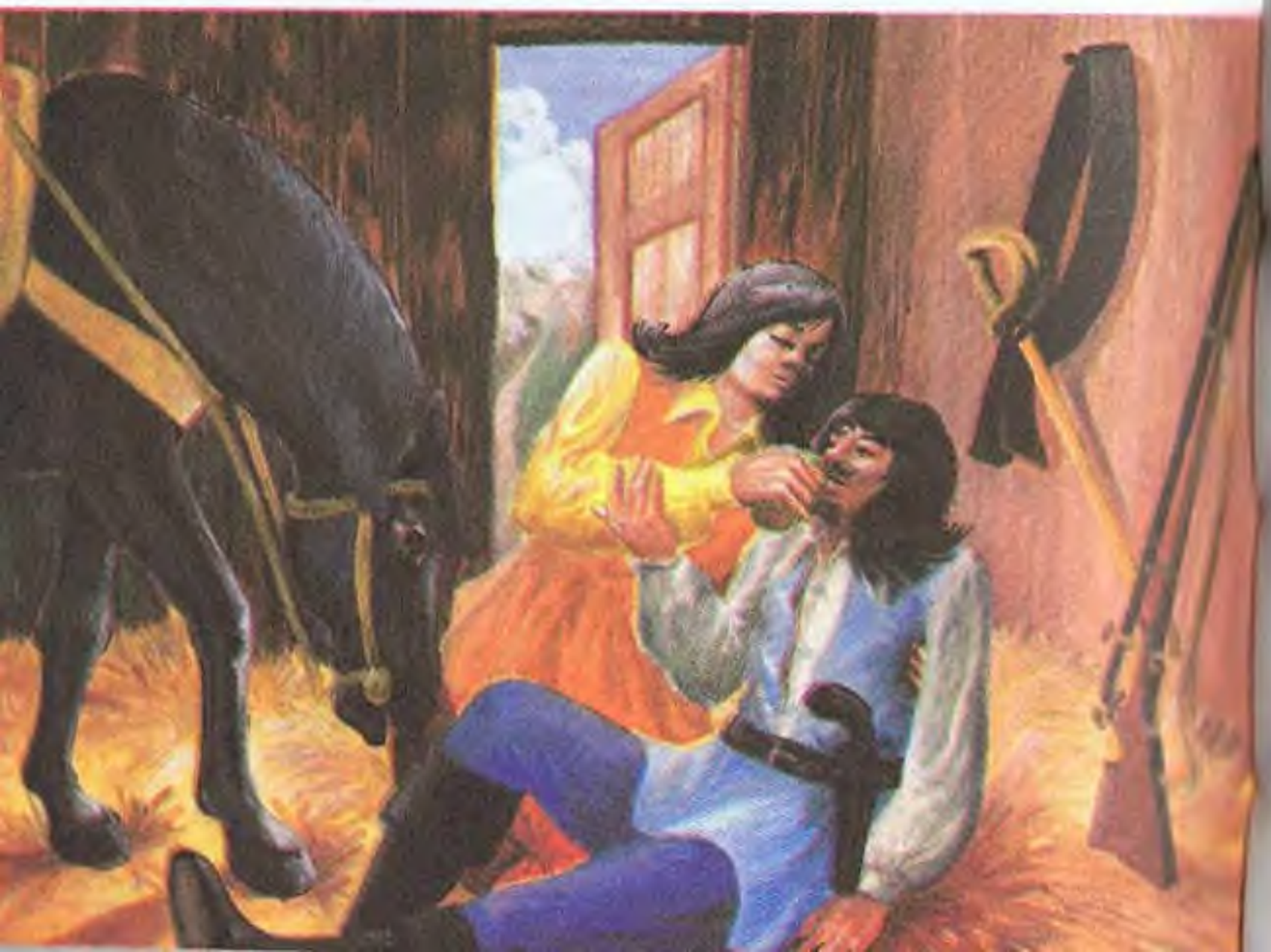

وَكَأَنَّها تُنادي تُوم . وَلَمَّا لَمْ تَسْمَعْ جَوابًا اقْتَحَمَتِ ٱلكُوخَ .

تَبِعْتُها إلى ٱلدَّاخِلِ ، فَرَأَيْتُ تُوم فاجَّس راقِدًا مُصابًا بِجُرْحٍ غائِرٍ في جَنْبِهِ ٱلأَيْمَنِ . وَناوَلْتُه قَليلًا مِنَ ٱلماءِ ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ وَرَبَّتَ عَلى فَرَسِهِ قائِلًا : « هَلْ أُصابَ وِني أَذًى ؟ »

أَجَبْتُهُ : « كَلَّا . »

قالَ : « ضَعْني إذًا عَلى ظَهْرِها . »

أَجْلَسْتُهُ فَوْقَ ظَهْرِ ٱلفَرَسِ ، فانْطَلَقَتْ بِهِ وِني بَعيدًا ، وَكانَ يَبْدو أَنَّها تَعْرِفُ طَريقَها جَيِّدًا . وَسَرْعانَ ما اخْتَفَيا عَنِ ٱلأَنْظارِ .

اسْتَلْقَيْتُ عَلى أَريكةٍ داخِلَ ٱلكُوخِ وَرُحْتُ في ٱلنَّوْمِ .

الفَصْلُ ٱلثّانيَ وَٱلثّلاثونَ

أَسيرٌ

نِمْتُ لِمُدَّةِ ثَلاثٍ أَوْ أَرْبَعِ ساعاتٍ . وَلَمَّا اسْتَيْقَظْتُ ، رَأَيْتُ ٱلكُوخَ مَليئًا بِٱلجُنودِ . سارَعْتُ بِقَوْلي : « هٰذا ٱلكُوخُ لَيْسَ مِلْكًا لَكُمْ ، فَما الَّذي جاءَ بِكُمْ إلى هُنا ؟ »

أَجابَ أَحَدُ ٱلجُنودِ : « أَتَيْنا لِكَيْ نُذْهَبَ بِكَ إلى ٱلمِشْنَقَةِ . »

قُلْتُ في هُدوءٍ : « إذًا فَلْيَضَعْ كُلٌّ مِنّا سِلاحَهُ في ٱلخارِجِ ، لِنَرى هَلْ تَسْتَطيعونَ أَنْ تَفْعَلوا ذٰلِكَ بِأَيْديكُمْ فَقَطْ . »

قَهْقَهَ ٱلجُنودُ ساخِرينَ ، فَقَدْ كانَ عَدَدُهُمْ يُقارِبُ ٱلعِشْرينَ ، وَكُنْتُ أُواجِهُهُمْ بِمُفْرَدي . وَسَرْعانَ ماقَبِلوا ٱلتَّحَدِّيَ ، فَأَلْقَيْنا جَميعًا بِبَنادِقِنا خارِجَ ٱلكوخِ .

انْدَفَعَ ٱلرَّجُلُ ٱلأَوَّلُ نَحْوي في تَهَوُّرٍ وَحُمْقٍ ، فَأَمْسَكْتُهُ مِنْ قَفاهُ ، وَقَذَفْتُ بِهِ عَلى رُؤوسِ زُملائِهِ . ثُمَّ جاءَ ٱلثّاني وَكانَ رَجُلًا ضَئيلَ ٱلجِسْمِ غَيْرَ مُتَمَرِّسٍ بِأَساليبِ ٱلقِتالِ ، فَطَرَحْتُ بِهِ خَلْفَ صاحِبِهِ .

عِنْدَئِذٍ تَحَشَّيَ ٱلآخَرونَ بَأْسي ، فَتَرَدَّدوا في ٱلهُجومِ ، وَوَقَفوا يَتَشاوَرونَ مَعًا في هَمْسٍ . وَهُنا مَرَقْتُ وَسْطَهُمْ كَٱلسَّهْمِ ، وَأَنا أَدْفَعُهُمْ ذاتَ ٱليَمينِ وَذاتَ ٱلشِّمالِ ، وَفي ثَوانٍ مَعْدوداتٍ قَفَزْتُ فَوْقَ ظَهْرِ حِصاني ، وَعَدَوْتُ أُسابِقُ بِهِ

آلرِّيحَ . فَأَطْلَقوا بِضْعَ رَصاصاتٍ نَحْوي ، غَيْرَ أَنَّها طاشَتْ جَميعًا ، إِذْ كُنْتُ قَدْ بَعُدْتُ عَنْهُمْ كَثيرًا .

سِرْتُ مَسافةً طَويلةً وَلٰكِنْ سَرْعانَ ما وَقَعْتُ في قَبْضةِ جَماعةٍ أُخْرى مِنْ جُنودِ آلمَلِكِ قَطَعَتْ عَلَيَّ آلطَّريقَ ، وَأَجْبَرَتْني عَلى آلنُّزولِ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِ حِصاني .

صاحَ آلجُنودُ وَهُمْ يُحيطونَ بي : « ها هُوَ ذا أَسيرٌ آخَرُ ! أَسيرٌ ضَخْمٌ ! »

أَصْدَرَ قائِدُهُمْ أَمْرَهُ بِأَنْ أُشْنَقَ عَلى إِحْدى آلأَشْجارِ آلقَريبةِ . وَلَفُّوا آلحِبالَ حَوْلَ جَسَدي ، وَدَفَعوا بي إِلى آلشَّجَرةِ ، فَرَأَيْتُ جُثَّتَيْ رَجُلَيْنِ شُنِقا بِآلفِعْلِ .

عِنْدَئِذٍ جاءَ رَجُلٌ مُسْرِعًا عَلى ظَهْرِ حِصانِهِ . وَما إِنْ رآني حَتَّى صاحَ في

آلجُنودِ قائِلًا : « اِرْفَعوا أَيْدِيَكُمْ عَنْ هٰذا آلرَّجُلِ ، فَأَنا أَعْرِفُهُ جَيِّدًا . إِنَّهُ أَسيري أَنا . » ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ قائِلًا :

« هَيَّا اِتْبَعْني يا جُون رِد ! » كانَ آلرَّجُلُ هُوَ جيرِيمي ستِكِلْز .

وَبَيْنَما كانَ جَوادانا يَسيرانِ مُتَجاوِرَيْنِ عَلى آلطَّريقِ ، اِقْتَرَبَ مِنِّي جيرِيمي وَهَمَسَ قائِلًا : « لَقَدْ أَنْقَذْتَني يَوْمًا – مِنْ آلِ دُون ، وَهٰأَنَذا آلآنَ أَرُدُّ إِلَيْكَ آلجَميلَ . »

الفَصْلُ آلثَّالِثُ وَآلثَّلاثونَ

آلْتَقَيْتُ بِلُورْنا

قالَ لي جيرِيمي ستِكِلْز وَنَحْنُ نَسيرُ في آلطَّريقِ : « حَذارِ أَنْ تَهْرُبَ مِنّي ياجُون وَإِلَّا اسْتَوْلَوْا عَلى مَزْرَعَتِكَ ، وَأَلْقوا آلقَبْضَ عَلى أُمِّكَ وَشَقيقَتَيْكَ فَهُمْ يَعْرِفونَ اسْمَكَ . »

أَجَبْتُ : « لَنْ أُحاوِلَ آلفِرارَ ، فَأَنا آلآنَ أَسيرُكَ ، وَسَوْفَ أَذْهَبُ مَعَكَ إلى لَنْدَن . »

قالَ جيرِيمي : « سَوْفَ تُحاكَمُ أَمامَ أَحَدِ آلقُضاةِ في لَنْدَن ، وَسَوْفَ تُعامَلُ بِآلحُسْنى . إِنَّهُ مِنَ آلحِكْمةِ أَنْ تَأْتِيَ مَعي . »

رَحَلْنا مَعًا إلى لَنْدَن . وَكُنْتُ أُفكِّرُ في لُورْنا طَوالَ آلرِّحْلةِ وَأَتساءَلُ : « أَلا تَزالُ لُورْنا تُحِبُّني ؟! »

عِنْدَما وَصَلْتُ إلى لَنْدَن ، عَلِمْتُ أَنَّ لُورْنا تَعيشُ مَعَ عَمِّها ، لُورْد برانْدير ، كَما سَمِعْتُ أَنَّ آلمَلِكةَ تُحِبُّها حُبًّا شَديدًا ، وَأَنَّهُما يَذْهَبانِ إلى آلِاحْتِفالاتِ آلرَّسْميَّةِ مَعًا . وَهٰكَذا تَوَجَّهْتُ إلى قاعةِ آلِاحْتِفالاتِ ذاتَ يَوْمٍ ، وَوَقَفْتُ في آلخارِجِ بَيْنَ جُموعِ آلقادِمينَ أَمَلًا في رُؤْيةِ لُورْنا وَهِيَ تَدْخُلُ في صُحْبةِ آلمَلِكةِ .

وَصَلَ آلمَلِكُ وَآلمَلِكةُ إلى قاعةِ آلِاحْتِفالاتِ في مَوْكِبٍ بَديعٍ ، يَتْبَعُهُما عَدَدٌ

كَبيرٌ مِنَ آللُّوردات وَآلعُظَماءِ ، وَتَسيرُ خَلْفَ هٰؤُلاءِ مَجْموعةٌ مِنْ وَصيفاتِ آلمَلِكةِ آلجَميلاتِ ، تَتَوَسَّطُهُنَّ لُورْنا . وَبَيْنَما أَنا أَنْظُرُ إِلَيْها ، آلْتَفَتَتْ فَوَقَعَ بَصَرُها عَلَيَّ ، وَأَطالَتِ آلنَّظَرَ إِلَيَّ بِعَيْنَيْها آلجَميلَتَيْنِ آلرَّقيقَتَيْنِ .

تَبِعْتُها إلى داخِلِ آلقاعةِ . وَبَيْنَما أَنا جالِسٌ هُناكَ ، جاءَني رَجُلٌ يَحْمِلُ رِسالةً قَصيرةً مِنْها ، تَطْلُبُ فيها أَنْ أَحْضُرَ لِلِقائِها بِمَنْزِلِها في آليَوْمِ آلتّالي . وَذَهَبْتُ في آلمَوْعِدِ آلمُحَدَّدِ إلى مَنْزِلِ لُورْد برانْدير وَفَتَحَتْ جُويني كارْفاكْس آلبابَ ، وَقادَتْني إلى حُجْرةٍ فَسيحةٍ فاخِرةِ آلأَثاثِ . وَبَعْدَ بُرْهةٍ قَصيرةٍ دَخَلَتْ لُورْنا .

كُنْتُ مُتَلَهِّفًا لِسَماعِ أَخْبارِها . وَلَمَّا عاتَبْتُها عَلى عَدَمِ إِرْسالِ خِطاباتٍ ، قالَتْ : « لَقَدْ كَتَبْتُ لَكَ عِدَّةَ رَسائِلَ مُنْذُ أَنْ وَصَلْتُ إلى لَنْدَن ، وَلٰكِنَّني اكْتَشَفْتُ أَخيرًا أَنَّ جُويني قَدْ أَخْفَتْها جَميعًا ، وَأَنَّها لَمْ تَبْعَثْ بِواحِدةٍ مِنْها إِلَيْكَ لِأَنَّها كانَتْ تُريدُني أَنْ أَتَزَوَّجَ بِلُورْد . إِنَّني أَكْرَهُ آلحَياةَ في لَنْدَن . إِنَّ آلرِّجالَ هُنا يَتَوَدَّدونَ إِلَيَّ مِنْ أَجْلِ مالي فَحَسْبُ . أَنا لا أُفكِّرُ إِلَّا فيكَ ، وَأُريدُكَ أَنْ تَأْتِيَ كَثيرًا لِرُؤْيَتي . »

الفَصْلُ آلرَّابِعُ وَآلثَّلاثونَ

لُصوصُ آللَّيْلِ

في أُمْسِيَّةٍ مِنْ أَماسيِّ شَهْرِ سِبْتِمْبِر ، كُنْتُ أَمُرُّ أَمامَ مَنْزِلِ لُورْد برانْدير فَرَأَيْتُ ثَلاثَةَ رِجالٍ يَقِفونَ في ظِلالِ آلشَّجَرِ قَريبًا مِنَ آلمَنْزِلِ . قُلْتُ في نَفْسي : « يَبْدو أَنَّ آلرِّجالَ مِنَ آللُّصوصِ .. سَوْفَ أَنْتَظِرُ لِأَكْشِفَ عَمَّا يُدَبِّرونَ . » وَاخْتَبَأْتُ بَيْنَ آلظِّلالِ .

أُطْفِئَتِ آلأَنْوارُ آلَّتي كانَتْ تُشِعُّ مِنْ نَوافِذِ آلبَيْتِ . وَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ سَمِعْتُ نِداءً خَفيضًا يَأْتي مِنْ وَراءِ إِحْدى آلأَشْجارِ آلقَريبةِ . وَمَرَّ آلرِّجالُ آلثَّلاثةُ بَعْدَ ذٰلِكَ مُباشَرةً مِنْ أَمامي ، ثُمَّ فُتِحَتْ إِحْدى آلنَّوافِذِ ، وَمَرَقَ آلثَّلاثةُ مِنْ خِلالِها إِلى داخِلِ آلبَيْتِ . وَأَسْرَعْتُ وَدَخَلْتُ وَراءَهُمْ مِنْ نَفْسِ آلنَّافِذةِ . رَأَيْتُ خادِمةً تَسيرُ حامِلةً مِصْباحًا ، وَمِنْ وَرائِها آلرِّجالُ آلثَّلاثةُ . وَما إِنْ أَتَوْا إِلى غُرْفةِ لُورْد برانْدير حَتَّى اقْتَحَموا آلبابَ وَدَخَلوها .

تَسَلَّلْتُ عَلى أَثَرِهِمْ إِلى داخِلِ آلحُجْرةِ ، فَرَأَيْتُ أَحَدَ آلرِّجالِ يُصَوِّبُ بُنْدُقِيَّةً إِلى لُورْد برانْدير ، وَأَخَذَ زَميلاهُ يُحاوِلانِ فَتْحَ صُنْدُوقٍ ضَخْمٍ . وَقالَ آلرَّجُلُ آلَّذي يُصَوِّبُ سِلاحَهُ إِلى لُورْد برانْدير : « أَخْبِرْني أَيْنَ آلمِفْتاحُ وَإِلَّا قَتَلْتُكَ .. سَأَعُدُّ مِنْ واحِدٍ إِلى عَشَرةٍ ، ثُمَّ أُطْلِقُ آلرَّصاصَ بَعْدَ ذٰلِكَ . »

وَأَجابَ لُورْد برانْدير : « لَنْ أُخْبِرَكَ بِمَكانِهِ . »

وَبَدَأَ آللِّصُّ في آلعَدِّ : « واحِد – اثْنان – ثَلاثة ... »

فَانْدَفَعْتُ إِلى وَسَطِ آلحُجْرةِ ، وَأَطَحْتُ بِبُنْدُقِيَّتِهِ بِضَرْبةٍ واحِدةٍ مِنْ عَصايَ ، ثُمَّ هَوَيْتُ بِآلعَصا عَلى رَأْسِهِ ، فَسَقَطَ فاقِدًا آلوَعْيَ .

أَسْرَعَ آللِّصَّانِ آلآخَرانِ بِمُهاجَمَتي ، وَبِيَدِ واحِدٍ مِنْهُما بُنْدُقِيَّةٌ . فَرَفَعْتُ زَميلَهُما بِسُرْعةٍ خاطِفةٍ عَنِ آلأَرْضِ ، وَاتَّخَذْتُهُ ساتِرًا أَحْتَمي خَلْفَهُ . وَأَطْلَقَ آللِّصُّ آلَّذي يَحْمِلُ آلبُنْدُقِيَّةَ آلنَّارَ فَأَصابَتِ آلرَّصاصةُ زَميلَهُ آلَّذي كُنْتُ أَحْتَمي وَراءَهُ ، فَصَرَعَتْهُ في آلحالِ . وَأَمْسَكْتُ بِآللِّصَّيْنِ ، وَقَيَّدْتُ أَيْدِيَهُما وَأَرْجُلَهُما بِآلحِبالِ .

جِيءَ بِآللِّصَّيْنِ في آلصَّباحِ آلتّالي أَمامَ آلقاضي ، وَكانا رَجُلَيْنِ مَشْهورَيْنِ بِعَدائِهِما آلشَّديدِ لِلْمَلِكِ . وَسُرَّ آلقاضي لِإِمْساكي بِهِما سُرورًا بالِغًا ، وَكَتَبَ خِطابًا لِلْمَلِكِ بِما حَدَثَ – كَما رَوى لُورْد برانْدير أَيْضًا لِلْمَلِكِ كَيْفَ أَمْسَكْتُ بِهٰذَيْنِ آلمُجْرِمَيْنِ .

في عَصْرِ ذٰلِكَ آليَوْمِ ، أَتى رَجُلٌ لِيَصْطَحِبَني إِلى آلقَصْرِ آلمَلَكيِّ ، لِأَمْثُلَ أَمامَ آلمَلِكِ هُناكَ . فارْتَدَيْتُ أَفْخَرَ ثِيابي ، وَخَرَجْتُ مَعَهُ إِلى قَصْرِ صاحِبِ آلجَلالةِ .

عِنْدَما دَخَلْتُ قاعةَ آلعَرْشِ ، رَأَيْتُ آلمَلِكةَ أَيْضًا ، تَجْلِسُ إِلى جِوارِ آلمَلِكِ .

قالَتِ آلمَلِكةُ وَهِيَ تَتَطَلَّعُ إِلَيَّ : « إِذًا فَأَنْتَ جُون رِد ، آلَّذي طالَما حَدَّثَتْنا عَنْهُ عَزيزَتُنا لُورْنا . »

أَضافَ آلمَلِكُ : « لَقَدْ أَسْدَيْتَ لي خِدْمةً جَليلةً . هَيَّا ارْكَعْ ، ياجُون رِد ! »

جَثَوْتُ راكِعًا عَلى رُكْبَتَيَّ . وَلَمَسَ آلمَلِكُ كَتِفَيَّ ، ثُمَّ قالَ :

« انْهَضْ ، ياسِيْر جُون رِد . »

وَهٰكَذا مَنَحَني آلمَلِكُ لَقَبَ سِيْر وَأَصْبَحْتُ بِهٰذا آللَّقَبِ مِنْ كِبارِ رِجالِ آلدَّوْلةِ .

الفَصْلُ آلخامِسُ وَآلثَّلاثونَ

مَعْرَكةُ آلوادي آلثَّانِيةُ

عُدْتُ إلى مَزْرَعَتي حُرًّا ، بَعْدَ أَنْ كَرَّمَني آلمَلِكُ . وَكُنْتُ حَزينًا لِفِراقِ لُورْنا ، غَيْرَ أَنَّني كُنْتُ مُرَحَّبًا بِآلعَوْدةِ ، لِأَنَّني أَنْفَقْتُ في لَنْدَنْ مَبالِغَ كَبيرةً مِنَ آلمالِ .

عِنْدَما عُدْتُ إلى آلمَزْرَعةِ ، أَقامَ آلنَّاسُ وَليمةً هائِلةً تَكْريمًا لي وَسارَ آلعَمَلُ في آلمَزْرَعةِ كَسابِقِ عَهْدِهِ . غَيْرَ أَنَّ آل دُون لَمْ يَكُفُّوا عَنِ آلقَتْلِ وَآلسَّلْبِ في آلمِنْطَقةِ . فَقَدْ هاجَموا بَيْتَ رَجُلٍ يُدْعى كيت بادْكوك وَقَتَلوا زَوْجَتَهُ وَخَطَفوا طِفْلَهُ ، ثُمَّ وَلَّوْا هارِبينَ بَعْدَ أَنْ أَحْرَقوا آلمَنْزِلَ . وَلَقَدْ أَثارَتْ هٰذِهِ آلجَرائِمُ غَضَبَ جَميعِ أَهالي آلمِنْطَقةِ ، فَتَجَمَّعوا وَقَرَّروا أَنْ يَشُنُّوا آلحَرْبَ ضِدَّ آلِ دُون ، لِيَضَعوا نِهايةً لِكُلِّ آلامِهِمْ وَمَتاعِبِهِمْ .

تَمَثَّلَتِ آلخُطَّةُ في أَنْ نَبْعَثَ بِأَحَدِ رِجالِنا إلى آلِ دُون لِيُخْبِرَهُمْ أَنَّ جَماعةً مُسافِرةً تَحْمِلُ كَمِّيَّةً كَبيرةً مِنَ آلذَّهَبِ ، سَوْفَ تَمُرُّ عَلى آلطَّريقِ في لَيْلةٍ مُعَيَّنةٍ . وَعِنْدَما يُغادِرُ آلُ دُون واديَهُمْ في تِلْكَ آللَّيْلةِ لِقَطْعِ آلطَّريقِ عَلى آلمُسافِرينَ وَسَلْبِ آلذَّهَبِ آلمَزْعومِ ، تُهاجِمُ مَجْموعةٌ مِنْ رِجالِنا بَوَّابةَ آلوادي ، عَلى حينِ تَكْمُنُ مَجْموعةٌ أُخْرى بِآلقُرْبِ مِنْ صَخْرةِ آلشَّلَّالِ (وَهِيَ آلصَّخْرةُ آلَّتي كُنْتُ أَتَسَلَّقُها فيما مَضى عِنْدَ ذَهابي لِمُقابَلةِ لُورْنا في آلوادي) . وَعِنْدَما يَبْدَأُ آلقِتالُ بَيْنَ آلِ دُون وَرِجالِنا عِنْدَ آلبَوَّابةِ ، يُطْلِقُ زَميلٌ لَنا رابِضٌ

عَلى قِمَّةِ آلتَّلِّ ، هُوَ جُون فراي ، مِدْفَعَهُ ، فَتُسْرِعُ آلمَجْموعةُ آلثَّانيةُ إلى صُعودِ آلشَّلَّالِ .

كانَ آلقَمَرُ يُرْسِلُ ضَوْءَهُ فَوْقَ آلتِّلالِ حِينَ خَرَجْتُ عَلى رَأْسِ آلقُوَّةِ آلثَّانِيةِ

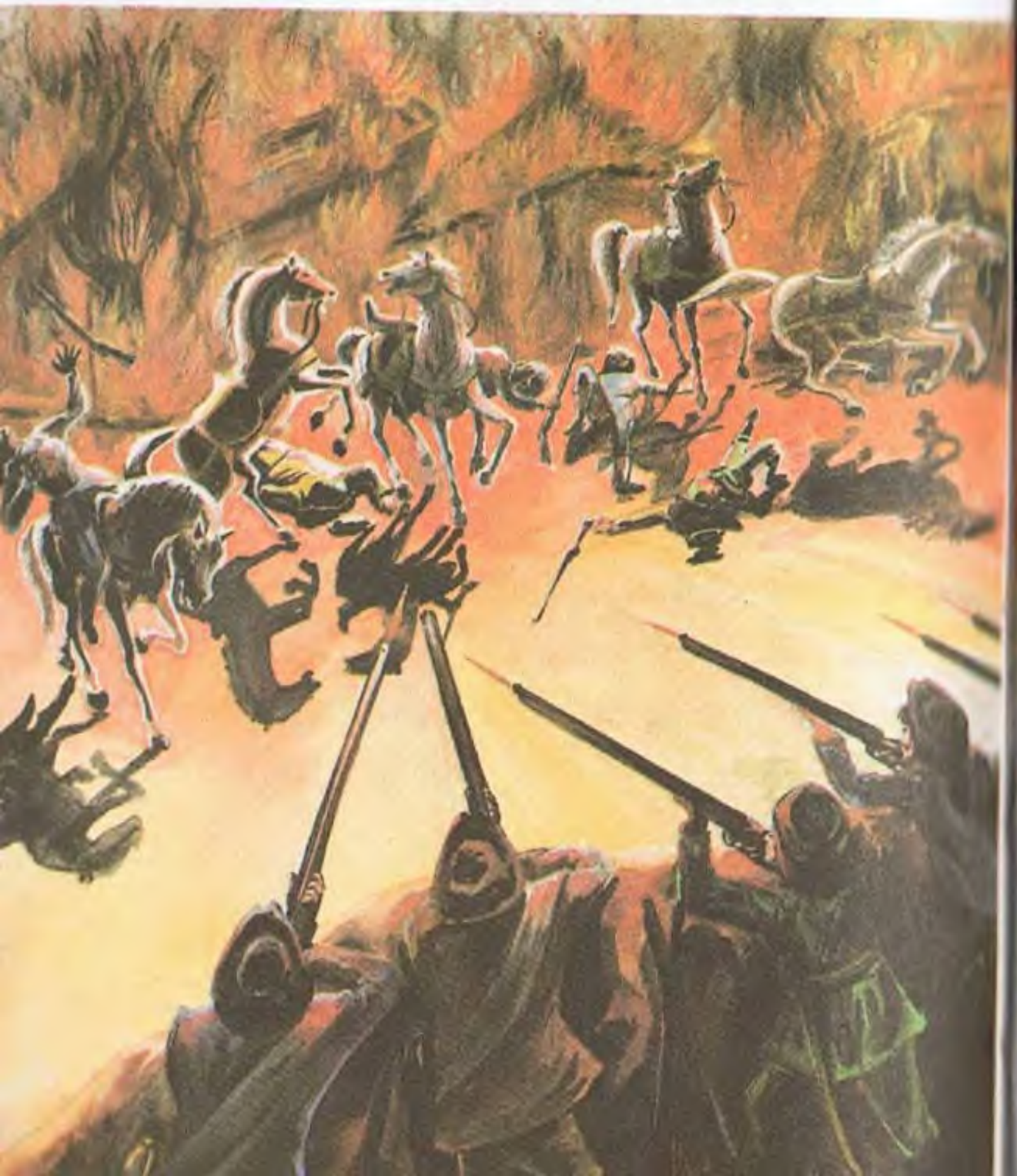

آلمُتَوَجِّهةِ إلى آلشَّلَّالِ . وَطالَ انْتِظارُنا هُناكَ ، حَتَّى راوَدَني آلشَّكُّ في أَنَّ جُون فراي قَدْ غَلَبَهُ آلنُّعاسُ . وَأَخيرًا سَمِعْنا صَوْتَ آلمِدْفَعِ .

صِحْتُ في رِفاقي قائِلًا : « هَيَّا يارِجالُ ارْفَعوا بَنادِقَكُمْ إلى أَعْلى وَحَذارِ مِنْ أَنْ يُطْلِقَ أَحَدُكُمْ آلنّارَ عَلى زَميلِهِ وَأَنْتُمْ تَتَسَلَّقونَ . »

وَصعِدْنا إلى قِمَّةِ آلشَّلَّالِ بِسُرْعةٍ فائِقةٍ ، ثُمَّ هَبَطْنا عَلى آلنّاحِيةِ آلأُخْرى ، وَتَوَغَّلْنا داخِلَ آلوادي . وَآقْتَحَمْنا مَنْزِلَ كارْڤَر ، وَأَشْعَلْنا فيهِ آلنّارَ . وَرَأَيْتُ هُناكَ وَلَدًا صَغيرًا ، هُوَ ابْنُ كارْڤَر ، فَأَنْقَذْتُهُ ، ثُمَّ آنْطَلَقْنا إلى باقي آلمَنازِلِ ، وَأَخْرَجْنا مِنْها آلنِّساءَ وَآلأَطْفالَ ، وَأَشْعَلْنا فيها آلنّارَ .

صاحَتِ آلنِّساءُ : « إنَّ بَلْدةَ آلِ دُون تَحْتَرِقُ ! »

وَانْتَشَرَ آلضَّوْءُ آلأَحْمَرُ في أَرْجاءِ آلوادي ، وَآنْعَكَسَ فَوْقَ سَطْحِ آلنَّهْرِ وَفَوْقَ وُجوهِ آلنِّساءِ وَآلأَطْفالِ .

وَكَما تَوَقَّعْنا ، عادَ آلُ دُون مِنَ آلبَوّابةِ تارِكينَ عَدَدًا قَليلًا هُناكَ . وَكانَ آلعائِدونَ بِقيادةِ تشارْلي دُون . وَرَأَيْناهُمْ بِوُضوحٍ عَلى ضَوْءِ آلنّارِ ، فَأَطْلَقَ رِجالي آلرَّصاصَ عَلَيْهِمْ . وَشاهَدْتُ كيت بادْكوك يَقْتُلُ تشارْلي ، فَقَدْ كانَ تشارْلي هُوَ آلرَّجُلَ آلَّذي خَطَفَ طِفْلَهُ .

بَحَثْتُ عَنْ كارْڤَر فَحَسْبُ ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ .

لَنْ أَتَحَدَّثَ كَثيرًا عَنْ هَوْلِ تِلْكَ آلمَعْرَكةِ ، وَعَمَّا تَخَلَّلَها مِنْ قَتْلٍ مُرَوِّعٍ . وَلٰكِنْ يَكْفي أَنْ أَقولَ إنَّهُ عِنْدَما بَزَغَ آلفَجْرُ ، لَمْ يَكُنْ هُناكَ عَلى قَيْدِ آلحَياةِ مِنْ

آلِ دُون سِوى اثْنَيْنِ هُما آلمُسْتَشارُ وَكارْڤَر ، وَأَنَّ بُيوتَ آلوادي أَصْبَحَتْ أَطْلالًا سَوْداءَ يَتَصاعَدُ مِنْها آلدُّخانُ آلكَثيفُ .

بَقِيَ أَنْ أَقُصَّ عَلَيْكُمْ ما حَدَثَ لِباقي آلِ دُون آلَّذينَ كانوا خارِجَ آلوادي أَثْناءَ آلمَعْرَكةِ :

خَرَجَتْ جَماعةٌ مِنْهُمْ بِقيادةِ كارْڤَر لِسَرِقةِ آلذَّهَبِ آلمَزْعومِ . وَكانَ سيمون هُوَ رَجُلَنا آلَّذي بَعَثْنا بِهِ إلى آلِ دُون لِيُخْبِرَهُمْ بِقِصَّةِ آلذَّهَبِ . وَخَرَجَ مَعَ كارْڤَر وَجَماعَتِهِ في تِلْكَ آللَّيْلةِ ، وَذَهَبَ بِهِمْ إلى مَنْزِلٍ مَهْجورٍ ، كانَ يَأْوي إلَيْهِ آلمُطارَدونَ مِنَ آلمُجْرِمينَ وَآلخارِجينَ عَلى آلقانونِ ، حَيْثُ جَلَسوا يَتَرَقَّبونَ مُرورَ آلمُسافِرينَ آلمَزْعومينَ آلَّذينَ يَحْمِلونَ آلذَّهَبَ . وَطالَ بِهِمْ آلانْتِظارُ دونَ جَدْوى . وَفي أَثْناءِ ذٰلِكَ ، تَمَكَّنَ سيمون مِنْ أَنْ يُغافِلَهُمْ وَيَصُبَّ ماءً داخِلَ بَنادِقِهِمْ فَأَفْسَدَها .

فَجْأَةً داهَمَتْهُمْ جَماعةٌ مِنْ رِجالِنا داخِلَ آلمَنْزِلِ ، وَصَوَّبَتِ آلبَنادِقَ إلى كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ . وَحاوَلَ آلُ دُون إطْلاقَ آلنّارِ ، وَلٰكِنَّ بَنادِقَهُمْ لَمْ تَنْطَلِقْ . وَحارَبوا بِشَراسةٍ ، غَيْرَ أَنَّ رِجالَنا تَمَكَّنوا مِنَ آلقَضاءِ عَلَيْهِمْ جَميعًا ، فيما عَدا كارْڤَر آلَّذي اسْتَطاعَ أَنْ يَقْفِزَ فَوْقَ ظَهْرِ حِصانِهِ آلضَّخْمِ وَيُفْلِتَ بِهِ مِنْ مَوْتٍ مُحَقَّقٍ .

الفَصْلُ آلسَّادِسُ وَآلثَّلاثونَ

مَصْرَعُ كارْڤَر دُون

عادَتْ لُورْنا مِنْ لَنْدَن ، وَكانَ كُلُّ شَيْءٍ مُعَدًّا لِزَواجِنا . وَأَتَتْ إلى آلحَفْلِ حُشودٌ كَبيرةٌ مِنَ آلنَّاسِ .

تَقَدَّمْتُ نَحْوَ جُموعِ آلنَّاسِ مُتَأَبِّطًا ذِراعَ لُورْنا . وَكانَتْ تَرْتَدي ثَوْبَ آلزِّفافِ آلأَبْيَضَ آلبَديعَ .

وَضَعْتُ خاتَمَ آلزَّواجِ في إصْبَعِها ، فَرَفَعَتْ عَيْنَيْها إلى عَيْنَيَّ . وَلِلتَّوِّ دَوَّتْ طَلْقَةٌ نارِيَّةٌ ، وَسَقَطَتْ لُورْنا عَلى رُكْبَتَيَّ . وَلَطَّخَتْ دِماؤُها ثَوْبَها آلأَبْيَضَ ، وَسالَتْ فَوْقَ آلأَرْضِ . وَأَرْقَدْتُها بَيْنَ ذِراعَيْ وَالِدتي ، ثُمَّ آنْدَفَعْتُ إلى آلخارِجِ لِأُمْسِكَ بِآلمُجْرِمِ آلَّذي آرْتَكَبَ هٰذِهِ آلفَعْلَةَ .. كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ آلمُجْرِمَ هُوَ كارْڤَر دُون !

لَمْ أَكُنْ أَحْمِلُ بُنْدُقِيَّتي ، وَكانَ عَلَيَّ أَنْ أُقاتِلَهُ بِيَدَيَّ . فَقَفَزْتُ إلى ظَهْرِ جَوادي وَصَعِدْتُ بِهِ آلتَّلَّ . وَرَأَيْتُ أَمامي ، عَلى بُعْدِ رُبْعِ ميلٍ تَقْريبًا ، رَجُلًا يَرْكَبُ حِصانًا ضَخْمًا أَسْوَدَ آللَّوْنِ ، فَأَيْقَنْتُ أَنَّهُ كارْڤَر .

قُلْتُ لِنَفْسي : « إمَّا أَنْ أَقْتُلَ كارْڤَر أَوْ يَقْتُلَني . »

كانَ يَحْمِلُ بُنْدُقِيَّتَهُ ، كَما كانَ يَحْمِلُ ابْنَهُ آلصَّغيرَ إنْسي أَمامَهُ عَلى آلجَوادِ . وَتَعَقَّبْتُهُ ، وَهُوَ يَصْعَدُ آلتَّلَّ ، إلى أَنْ أَتى قُرْبَ آلمُسْتَنْقَعِ آلكَبيرِ . وَهُنا تَوَقَّفَ كارْڤَر بُرْهَةً ، ثُمَّ آسْتَدارَ فَرَآني أَعْدو خَلْفَهُ . وَآسْتَحَثَّ جَوادَهُ عَلى آلجَرْيِ بِسُرْعَةٍ أَكْثَرَ ، وَلٰكِنَّ آلتَّعَبَ كانَ قَدْ نالَ مِنَ آلجَوادِ . وَكُنْتُ قَدِ آنْتَزَعْتُ فَرْعًا مِنْ إحْدى آلأَشْجارِ أَثْناءَ مُروري بِها ، وَحَمَلْتُهُ مَعي .

اِسْتَدارَ كارْڤَر بِجَوادِهِ وَأَطْلَقَ النّارَ ، فَأَصابَتْني الرَّصاصةُ ، غَيْرَ أَنَّني لَمْ أَهْتَمَّ ؛ فَلَمْ أَكُنْ أُفكِّرُ إلّا في عَدُوّي . وَأَسْرَعْتُ وَراءَهُ ، وَهَوَيْتُ عَلى جَوادِهِ بِضَرْبةٍ عَنيفةٍ مِنَ الفَرْعِ الضَّخْمِ الَّذي كُنْتُ أَحْمِلُهُ . فَسَقَطَ الجَوادُ عَلى الأَرْضِ ، وَمَعَهُ كارْڤَر . وَلَمْ يَسْتَطِعْ كارْڤَر أَنْ يَنْهَضَ في الحالِ ، فَقَفَزْتُ مِنْ فَوْقِ جَوادي ، وَوَقَفْتُ أَنْتَظِرُ . وَجَرى ابْنُهُ الصَّغيرُ نَحْوي وَنَظَرَ إلَيَّ وَالخَوْفُ يَمْلأُ عَيْنَيْهِ . وَرَبَّتُّ عَلى كَتِفِهِ بِرِقَّةٍ قائِلًا : « يا عَزيزي إنْسي ، اجْرِ بِسُرْعةٍ فَوْقَ التَّلِّ ، وَانْتِقِ لي بَعْضَ الأَزْهارِ . »

انْطَلَقَ الصَّبِيُّ بَعيدًا عَلى الفَوْرِ .

نَهَضَ كارْڤَر واقِفًا حَوْلَهُ باحِثًا عَنْ بُنْدُقِيَّتِهِ ، غَيْرَ أَنَّني كُنْتُ قَدْ طَوَّحْتُ بِها بَعيدًا . وَهٰكَذا اضْطُرَّ لِأَنْ يُواجِهَني بِيَدَيْهِ فَقَطْ .

كانَتْ تَفْصِلُ بَيْنَنا بُقْعةٌ تَكْسوها الحَشائِشُ . وَأَعْطَيْتُه الفُرْصةَ لِأَنْ يَبْدَأَ بِالهُجومِ . وَفَجْأَةً أَحاطَني بِذِراعَيْهِ القَوِيَّتَيْنِ ، وَضَغَطَ بِشِدَّةٍ هائِلةٍ عَلى جَسَدي ، فَكَسَرَ لي ضِلْعًا . وَلٰكِنّي أَطْبَقْتُ عَلى عُنُقِهِ بِكِلْتا يَدَيَّ . وَحاوَلَ جاهِدًا أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنّي فَلَمْ يُفْلِحْ . وَبَعْدَ لَحَظاتٍ عَجَزَ تَمامًا عَنِ الحَرَكةِ ، فَطَوَّحْتُ بِهِ بَعيدًا عَنّي .

وَنَظَرْتُ إلَيْهِ في ازْدِراءٍ قائِلًا : « يَكْفيكَ هٰذا العِقابُ يا كارْڤَر ! إنَّكَ مَهْزومٌ ، وَسَأَصْفَحُ عَنْكَ . »

لٰكِنَّ قَدَمَيْهِ كانَتا قَدِ انْزَلَقَتا في المُسْتَنْقَعِ ، وَأَخَذَ يَغوصُ بِبُطْءٍ ، فارْتَمى عَلى ظَهْرِهِ باسِطًا ذِراعَيْهِ ناحِيةَ السَّماءِ ، وَلٰكِنّي عَجَزْتُ عَنْ مُساعَدَتِهِ أَوْ إنْقاذِهِ – فَقَدِ ابْتَلَعَهُ المُسْتَنْقَعُ .

الفَصْلُ السَّابِعُ وَالثَّلاثونَ

خاتِمةُ القِصَّةِ

امْتَطَيْتُ جَوادي ، وَعُدْتُ إلى البَيْتِ أَحْمِلُ مَعي وَلَدَ كارْڤَر الصَّغيرَ . كُنْتُ أَسيرُ نَحْوَ المَنْزِلِ ، وَكَأَنّي في حُلْمٍ مُزْعِجٍ ، فَلَمْ يَكُنْ يَشْغَلُ تَفْكيري سِوى مَوْتِ لُورْنا . وَما إنْ وَصَلْتُ إلى بابِ البَيْتِ حَتّى سَقَطْتُ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِ الجَوادِ . وَسارَعَتْ أُمّي تُعاوِنُني عَلى الدُّخولِ .

صِحْتُ : « لَقَدْ قَتَلْتُهُ .. قَتَلْتُهُ كَما قَتَلَ لُورْنا . وَالآنَ ، دَعوني أَراها . إنَّها لي أَنا .. لي أَنا حَتّى بَعْدَ المَوْتِ ! »

قالَتْ أُمّي : « لٰكِنَّها لَمْ تَمُتْ ، كَما أَنَّهُ يَجِبُ أَلّا تَراها وَأَنْتَ بِهٰذا الشَّكْلِ ، وَجَسَدُكَ كُلُّهُ مُلَطَّخٌ بِالدَّمِ . » ، ثُمَّ قادَتْني إلى غُرْفَتي .

رَقَدَتْ لُورْنا في فِراشِها عِدَّةَ أَيّامٍ بَيْنَ الحَياةِ وَالمَوْتِ ، وَلٰكِنَّها أَخَذَتْ تَسْتَرِدُّ صِحَّتَها بِبُطْءٍ .

كُنْتُ راقِدًا مَريضًا في فِراشي ، أَتَطَلَّعُ في حُزْنٍ إلى يَدَيَّ اللَّتَيْنِ كانَتا قَوِيَّتَيْنِ ، وَتَبْدوانِ الآنَ ضَعيفَتَيْنِ مِثْلَ يَدَيْ طِفْلٍ صَغيرٍ ، حِينَ دَخَلَتْ أُخْتي آني الغُرْفةَ وَبِصُحْبَتِها لُورْنا . وَلَمْ تَلْبَثْ آني أَنْ غادَرَتِ الحُجْرةَ ، وَأَغْلَقَتِ البابَ وَراءَها . وَاقْتَرَبَتْ مِنّي لُورْنا ، وَرَبَّتَتْ عَلى يَدي ، وَعِنْدَئِذٍ شَعَرْتُ بِالحَياةِ تَعودُ إلَيَّ .

وَهٰكَذا تَنْتَهي قِصَّتُنا . غَيْرَ أَنَّ حُبَّنا وَسعادَتَنا – كَزَوْجَيْنِ – لَمْ يَكُنْ لَهُما نِهايةٌ . فَكانَ جَمالُ لُورْنا وَرِقَّتُها يَزْدادانِ عامًا بَعْدَ عامٍ ، وَيَزْدادُ مَعَهُما حُبُّنا وَسَعادَتُنا .

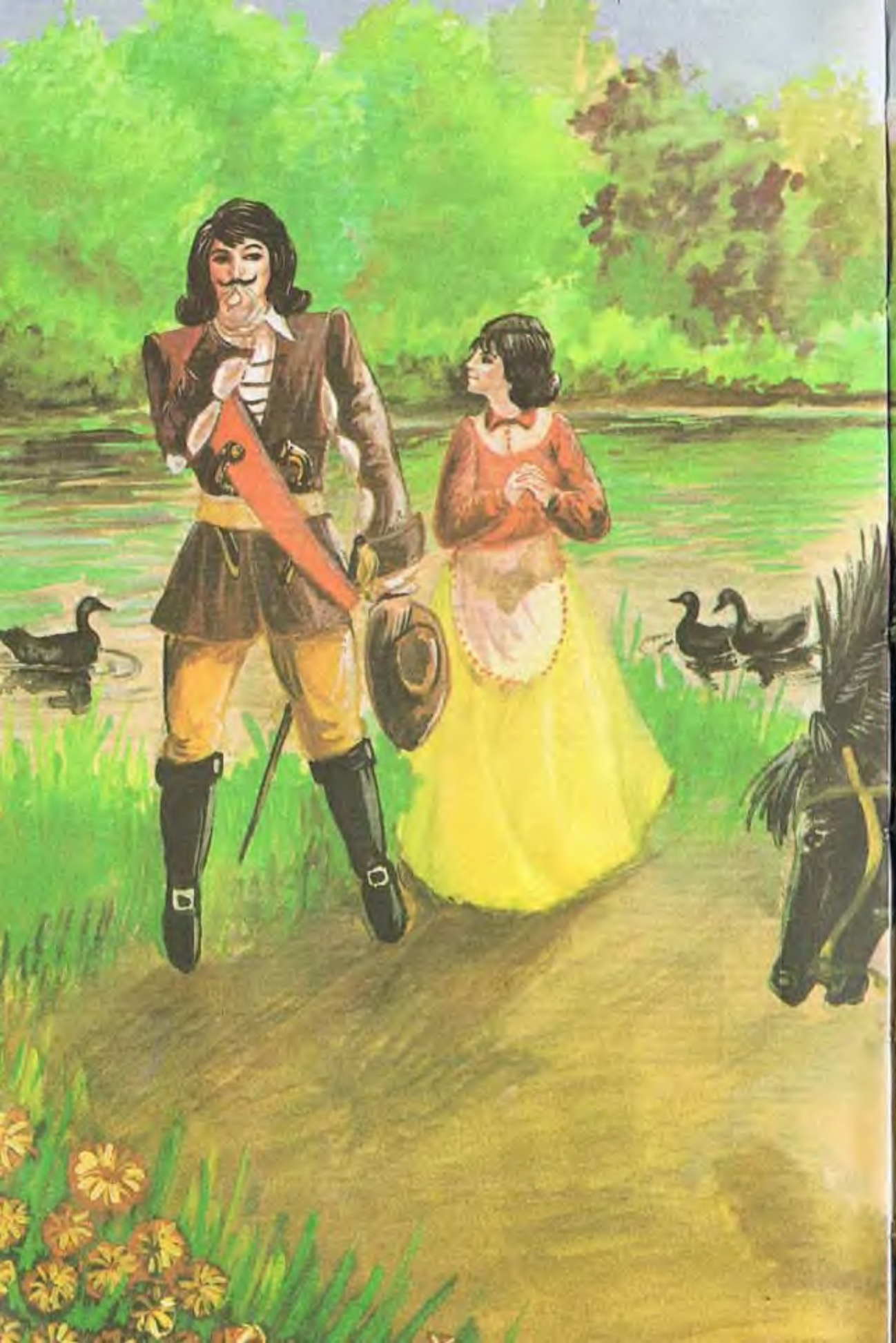

الروايات المشهورة

١ ــ جين إير
٢ ــ فرانكنشتاين
٣ ــ مونفليت
٤ ــ دراكولا
٥ ــ لورنا دون
٦ ــ دكتور جيكل ومستر هايد

مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت
رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 105